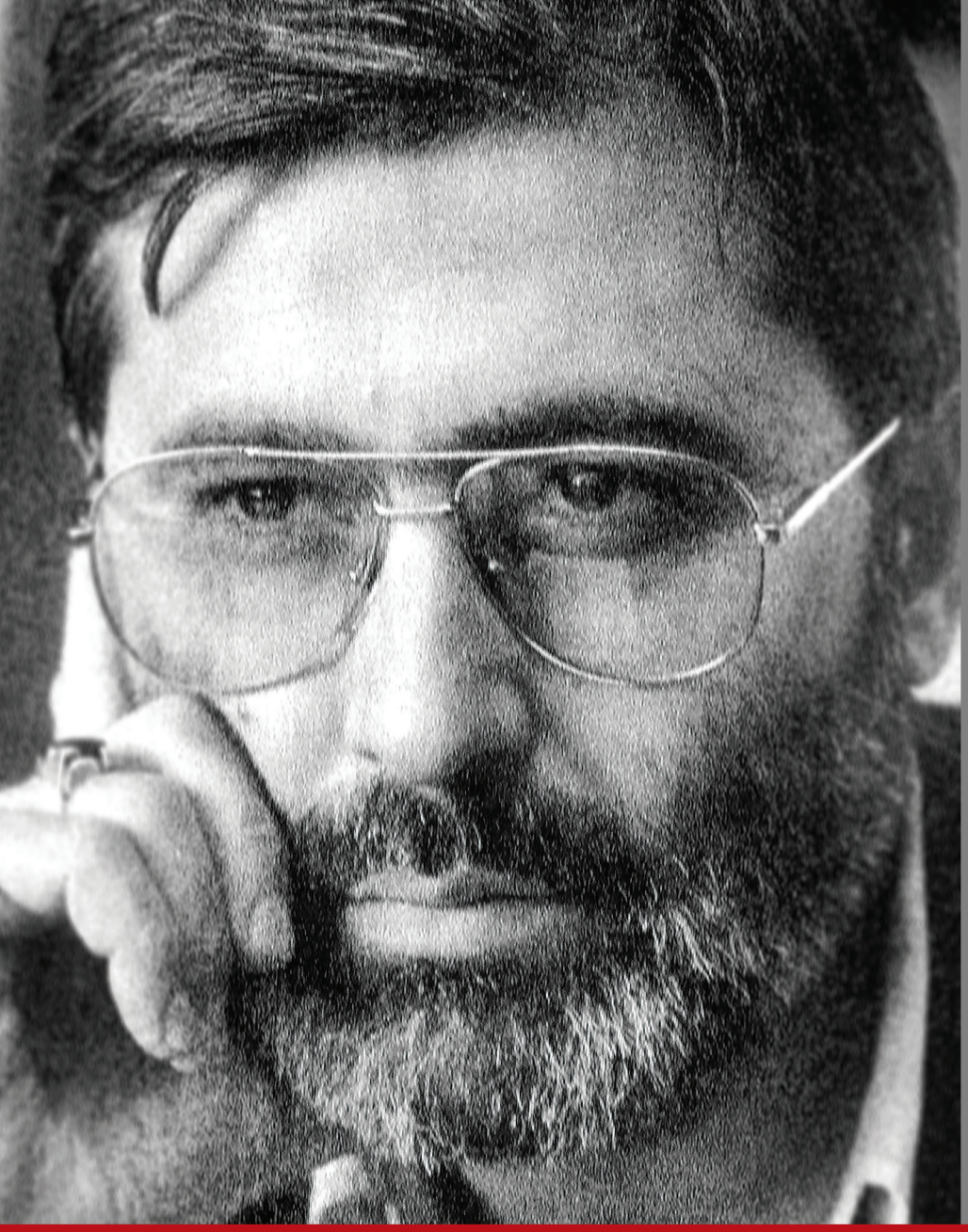

قصة الفتح

مرتضى آويني

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المودة

للترجمة والتحقيق والنشر

إسم الكتاب: **قصة الفتح**

تأليف: الشهيد السيد مرتضى آويني

ترجمة وإعداد: لبيك

نشر: دار المودة للترجمة والتحقيق والنشر

تاريخ الطباعة: ٢٠١٩م - ١٤٤٠هـ

طباعة: DB UK 00961 3 336218

ISBN: 978-614-464-042-5

Lebanon , Beirut , sfeir , Moukarzel street

Mob : 00961 70 724 300 | Telefax : 00961 1 270 664

info@diwan-kitab.com | Diwan.kitab.dm@gmail.com

قصة الفتح

الشهيد السيد مرتضى آويني

الفهرس

مقدّمة الطبعة العربية 7

الفصل الأول: بداية الهجرة العظيمة 11

الفصل الثاني: الكوفة 29

الفصل الثالث: مناظرة العقل والعشق 47

الفصل الرابع: قافلة العشق في رحلة التاريخ 55

الفصل الخامس: كربلاء 71

الفصل السادس: ناشئة الليل 79

الفصل السابع: فصل تمييز الخبيث من الطيب (إتمام الحجة) 93

الفصل الثامن: غربال الدهر 113

الفصل التاسع: كوكب الألم 119

الفصل العاشر: مكان مشاهدة الأسرار 131

المراجع 135

مقدّمة الطبعة العربية

قصّة الفتح (فتح خون، بالفارسية) نصٌّ يجمع بين القراءة التاريخية والفلسفة، وبين درامية الإنسان وطلائع العرفان الإسلامي، بين العبرة والعظة، والتأمّل والتحليل، ويقف على حدّ هاوية بين دورة الأكوان ويوميّات الأزمان. المعرفة والثقافة والروح العاشقة لربّها سرٌّ كامنٌ وضميرٌ مكنونٌ، سَكبها بعد صَهْرها معًا جميعًا بذائقته الفنية، مع عصارة عاطفته واندفاعه؛ ليصنع اللغة، ويشرق بِوُريْقات لا شرقية ولا غربية، يكاد حبرها يضيء.

هذا النصّ لم يولد في اللغة، بل إنّ اللغة هي أقلّ ما يظهر منه، فهي رموزٌ للنص الموجود حياة كاملة في عقل وقلب الكاتب. وقد تَحرّك فيما وراء السرد المباشر، متسلّحًا بعقلٍ حرٍّ يجول في التاريخ، ويطرح الأسئلة التي تُلقي الضوء على مدار واسع من الإشكاليات، بهدف الوصول إلى روح الزمان وزمان

الروح؛ لأنّه يريد أن تكون الحادثة التاريخية التي يُحقّق في تفاصيلها ذات فائدة لكلّ من يمرّ عليها، فائدة روحية عميقة وجذرية. لا يكفي الفهم والسرد، بل لا بدّ في منطقه من الاعتبار، فيختلط الماضي بالآني في لحظة واحدة.

بعد الولوج من باب الأحداث والأشخاص، لا يتأخّر في إعادة استنطاق الّذين بلغوا الفتح بما لم تنطقْه أفواههم، بل سلوكهم وأفعالهم، إنّه العَطَش نفسه يقوده إلى معرفة آثار العابِرين مع الحُسين واستنساخها لنا على الوُريقات بعد أن كانت جَمْعة من الحِرق في القلب.

لم يكن آويني، كما تظهر ملامحه من وراء حروفه، يخاف من الظلام، فهو وُضوحٌ، وإنّما قلقه العميق كان نصف الضوء، والتباس الغيم الرمادي، تَعامُلُه كان مع الشُّبهات والفِتن والحقائق التي تلبس لكي تغطّي الباطل والفساد. للإجابة عن هذا القلق، استخدَمَ التحليل النفس/ اجتماعي بحِرفة كاتبٍ دراميٍّ يعشقُ تقمُّص الزمان والشخصيات والمُدن والتّكايا، وتحليل نبضها واختلاجاتها، كأنّه عاش فيها وتَردّدَ في أزماتها، وانساق في عواصفها، ثمّ استبصر منعرجاتها ومزالقها، وعاد منها ليرويَ ما جرى؛ لأنّ كربلاء هي ملحمة تاريخية واقعية في الوقت ذاته الذي تُمثّل فيه قمة العشق والمعرفة، فإنّها تحتاج إلى شخصٍ مثل آويني، يقرأ ترابها وملكوتها في الوقت نفسه.

في عروق مرتضى دمٌ خالطَهُ القرآن وقلْبٌ يعشق الحسين، يمتزجان حتى تسيل الكلمات، وتأخذنا نحو كثبان الطريق بين مكة وكربلاء بحثًا عن الحقيقة، حتى كأنّ كلامه كأديب وفنان يلبس لغةَ وصيّة شهيد، فهو يكتب ممّا يعرفه ويعايشه، كلام معاينة وشعور.

في المنهج دمْجٌ بين فَهْم التاريخ المعنوي للإسلام، تاريخ الأرواح والنفوس، واللغة الجميلة، وحرقة القلب والعاطفة الدافقة، ليصوّر دائرة الابتلاء الإلهي، وساحة إظهار الأضداد؛ لتتجلّى معرفة نور الحقّ. في السياق حديثٌ عن الماضي لكنّه عن الحاضر، صراع السلطة المادية والمعنوية على مملكة قلب الإنسان.

يبحث عمّا لم يقُلْه التاريخ، عن المسكوت عنه، عمّا لم يذكره الرُواة والمحدِّثون والنقلة عبر القرون، فقَلَمُه وليد اقتران المناهج المعرفية الظاهرية في الاجتماع والدراما، مع بصيرة تُميّز بين سبل السماء والأرض، وروحٌ عاشقة للشهادة، بحيث يستطيع أن يُلقي نظرة إلى ظاهر التاريخ، ويحلّل شخصياته ليكشف لنا عن بواطن ووريقات خفيّة كامنة. فهم الوقائع بروحٍ فلسفية، وفي إطار رؤيةٍ كونيةٍ وجوديةٍ، ليستعرضَه الشهيد الأديب في تحليلٍ يخترقُ العوالمَ المختلفة، ويُكوِّن الصورةَ المتكاملة، ويُقلِّب أوْجُه الواقعيّة كما تظهر في كلّ ألوانها وأبعادها.

هادي قبيسي

الفصل الأول:
بداية الهجرة العظيمة

في السنة التاسعة والأربعين للهجرة، عندما استشهد الإمام الحسن المُجْتبى، كانت قد تَحقّقت رؤيا النبي الأكرم بالكامل، ومنبر الرسول ﷺ، يعني كرسيّ خلافة الإنسان الكامل، كان عرشًا تلعب عليه القِرَدة[1]. يوم بعثة الشام، انتهى الألفُ شهرٍ من بَسْط سلطة بَني أُمّية، وهكذا انتهى ليُلهم المُظلِم، وكانت هنالك فرصة ليَظهر نور الكواكب المضيئة للإمامة، هذه سُنّة الحياة: يَصِلُ الليل بالنهار والنهار بالليل. آهٍ من حُمرة الشفق التي توصِل النهار بالليل!

اقرأ قُل أعوذ بِربّ الفلق، فهذه الحُمرة مصبوغةٌ بحمرةِ دماء سبط رسول الله، الحسين بن عليّ. والإمام المجتبى أيضًا

(1) إشارة إلى رؤيا الرسول، والتي رأى فيها بني أمية على شكل قردة يلعبون على منبره. وهذه الحادثة كانت سبب نزول الآية 60 من سورة الإسراء. انظر تفسير الميزان، ج 13، المبحث الروائي للآيات 56 – 65.

استُشهِد بالسّمّ على يديْ أكبر داهيةٍ؛ معاوية بن أبي سفيان، وإن كان بواسطة جعدة بنت الأشعث بن القيس.

آهٍ من حمرة الشفق الذي يوصل النهار بالليل وآهٍ من الدهر، عندما يدور في فلك الطُغاة!

لم يمرّ نصف قرن عن حجة الوداع، وما زال هنالك العشرات من الصحابة الذين رأوا يَدَ عليّ بن أبي طالب في يدِ الرسول في غديرِ خُمّ، وسَمعوا حديثَه: «من كنتُ مَولاه فهذا عليٌّ مولاه».

ولكنّ العيون عَمِيتْ وامتلأَتْ المرايا بالغبار، لقد كسرَتِ الرياح المسمومة النباتات، واقتلعَت البراعم، وانتشرَتِ النّار في الأحراج. الشمسُ حجبَتْ تلك الغيوم السوداء، والدخان الكثيف في السماء يحجب عين اللأرض، والسهول هي مرتع الذئاب الضارية التي وجدَتْ السهول بلا راعٍ.

يا لهذا التشبيه بأنّ عليًّا مولود الكعبة؛ يعني إنّ باطن القبلة هو في الإمام! لكنّ الظاهريين لا يرَوْن من الكعبة سوى حجارتها، تمامُ الدين وكمالُهُ في الإمام، لكنّ الإمام وحيدٌ، وأبناء أُميّة جعلوا من كرسيّ الخلافةِ عرشًا يتوارثونه جيلًا بعد جيل.

لم يمضِ نصفُ قرنٍ على حجّة الوداع ورحيل النبيّ الأكرم ﷺ آخر نبيٍّ من أنبياء الله، اشتعلَت النيران التي اختفَتْ تحت رماد الظواهر، مرّة أخرى اشتعلَتْ نيران جهنّم.

جسمٌ بلا روح من الجُمعة والجماعة، هذا كلّ ما تبقّى لنا من حقيقة الدين، وإن كان إمام جماعة هذه المساجد «وليد» الذي كان حاكمًا على الكوفة بأمره. عند الفجر، ذهب سكرانًا إلى المسجد، وصلّى الصبح ثلاث ركعات، ثم خطب في الناس: «إن أردتُم سأضيف ركعةً أُخرى». أمّا الإمام العدل الذي هو باطن الشريعة والأرض والزمان، قامت به السماوات والأرض، يجلس مُبْعَدًا. ليس عجيبًا! إنّه في بلد العُماة، يَعتبرون الشمسَ لعنةً ويعبدون الظلام!

عندما يُصبح عبادُ الدنيا وُلاةَ الدولة الإسلامية سيصل الأمر إلى هنا، إلى المكان الذي يكون ظاهره مُزيّنًا بمذاق أهل الظاهر. في تعقيب الفرائض، كانوا يلعنون عليًّا عليه السلام، وهذه صفة المكّارين: كانوا يذكرون محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنهم يلعنون روحه التي هي عليّ. لقد قُدِّر أن يكون هكذا، أن يزول ليل الحكم الظالم والفاسد عن طريق شَفَق عاشوراء، وحُمرة هذا الشفق هي دماء أبناء الرسول.

الجاهلية بلدٌ ميتًا، حيث لا يُثمِر فيه غير شجرة الزّقوم. إن لم تكن صحراء القلوب الميتة الجاهلة، فكيف كانت ستنشر شجرة بني أميّة الخبيثة حُكمَها الضالّ الجهنميّ في المجتمع الإسلامي؟

للجاهلية جذورٌ، وإن لم يؤمنْ ذاك المشركُ عابدُ الأصنامِ في داخل الإنسان، ما النّفْع أن يقولَ بِلِسانه لا إله إلا الله؟ عندها يترك الجانب العدل والباطن في القبلة، ويعتبر الكعبة صنمًا حجريًّا يُصلّي إليه خمس مرات كلّ يوم، ويركع ويسجد في اتّجاهه، ويطوف حوله مرّات عدّة في العام.

ألم يكن أبناء أبي سفيان الذين لم يؤمنوا بالحقيقة يتحيّنون الفرص للانتقام من بني هاشم عن معركة «بدر»؟ إذا كانت القضية هكذا، كم حانَتْ تلك الفرصة سريعًا!

هل الخلافة، مسند الخليفة الإلهيّ للإنسان الكامل في خدمة إقامة العدل واستقرار الحق، أم إنّه أريكة قوة عباد الدنيا المكّارين وميراثٌ من الآباء إلى الأبناء؟ ماذا حلّ بأُمّة محمّد حتى يصلوا إلى حدّ أنّهم بعد نصف قرن من رحيل الرسول، سمحوا لِزانٍ مكّارٍ مُلْحدٍ مثل يزيد بن معاوية أن يصبحَ حاكمًا عليهم؟ ألم يقل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]؟. ما كان ذاك التغيير الذي استحقّ هكذا نهاية؟ معاوية بن أبي سفيان بِعقله الشيطاني أدرك بشدةٍ عودةَ النفس هذه، لقد أظهر ما كان يخفيه، وسلّم أمر

(1) سورة الرعد، الآية 11.

الخلافة ليزيد، ولم يعترض أحدٌ من أبناء ديار الأموات وجحور الضباع والأنجاس.

لم يعُدْ هنالك كلامٌ عن خليفة الله أو الحكومة العادلة، لم يعُدْ هنالك إلا حديثٌ عن إرث القبائل الذي يتحدث عن إرث الحُكم الذي ينتقل من الأب إلى ابنه. كان هنالك فرقٌ شاسعٌ بين كوخ الرسول الأعظم الموحِل إلى قصور معاوية الخضراء، وكأنّه فرقٌ بين الدنيا والآخرة. لو لم يمرّ خمسون عامًا من أوّل بدعةٍ، لَما كانت هذه البدعة الجديدة ظهرت، لَما وصل الحال إلى أن تغيب شمس عاشوراء في الشفق الأحمر، ولَما سال الدم الإلهي على الأرض. لكن، أَعِرِ الدّهْرَ قدرَكَ فهذه هي سُنّة الحياة! ألم ترَ صورة الشاطئ معكوسًا في مرآة الماء؟ هذا ما يفسّر أنّ الدنيا هي مرآة الآخرة.

يا للعجب!! «مروان بن الحكم بن العاص» الذي قال رسول الله عن والده: «**لعنَكَ الله ولعن ما في صلبِك**»[1]، الآن، وبأمرٍ من معاوية، طلَب البيعةَ من الناس ليزيد، واعجباه! إلى أين وصل أمر أمة محمّد!

يقول مروان بن الحكم كذبًا: «لقد اتّبع معاوية سُنّة أبو بكر»، ولقد كانت ردة الفعل الوحيدة حول هذا الكلام هي أنّ

(1) الشيخ عباس القمي، سفينة البحار، دار الأسوة، طهران، 1373، ج 8، ص 61.

«عبد الرحمن بن أبي بكر» قام صارخًا: «إنّك تكذب! لقد نحّى أبو بكر أبناءه وأقرباءه عن الخلافة، وولّى خلافة المسلمين لرجلٍ من بني عُدي»، وبعدها لا شيء. ماذا يقول مروان في مواجهة هذا الكلام؟

لقد ذكر المؤرّخ الذي نقلْنا عنه هذا الكلام قوله:

«لا عجب إذا كذب مروان بن الحكم بن العاص هكذا كذبة في هذه الجمعة؛ لأنّه كان قد مرّت أربعون سنة على موت أبي بكر والناس الذين كان يخطب فيهم آنذاك إمّا لم يكونوا على زمن أبي بكر وإمّا كانوا أطفالًا صغارًا، ولا يمكنهم تذكُّر شيءٍ مما يُقال»[1].

أما كانوا يعلمون أنّ الخلافة ليست إرثًا يتوارثه الأبناء عن الآباء؟

لقد حلّ غبار الغفلة على كلّ شيء، عَميَتْ مرايا إشراق النور. ويومًا بعد يوم بدأت تغيب ذكريات الشمس أيضًا من الأذهان، ولا عجب إذا اختفى الإنسان في ديار الأنعام الضالّة!

في العام السادس والستّين للهجرة، أكثر الناس كانوا ممّن ولِدوا في عصر عثمان، وقد ترعرعوا في نهاية عهد عليّ عليه السلام،

(1) السيد جعفر شهيدي، بعد خمسين عامًا: مبحث جديد في الثورة الحسينية، دار نشر فرهنك اسلامي، طهران، ص 86 و87.

والآن في عهد معاوية، فإنّ هؤلاء لا يملكون أدنى فكرة عن تاريخ تولّيه لحكم دمشق. لقد سلب معاوية ولاية الشام من الخليفة الأول، والآن قد مرّ نحو الأربعين سنة على تلك الأيام.

في كتاب «بعد خمسين عامًا»[1] جاء حول هذا الموضوع:

«مَن كان في الخمسين من العمر لم يرَ الرسول، أمّا مَن كان في الستين من العمر كان عند وفاته في العاشرة. مِن أولئك الذين رأوا الرسول أو سمعوا حديثه لم يتبقَّ إلا القليل الذين عاشوا في الكوفة والمدينة ومكّة أو في دمشق. أكثر الناس وخاصة أولئك الشباب الذين كانوا يُديرون عجلةَ النشاطاتِ الاجتماعية... يعني أولئك الذين هم في سنّ الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، هم مَن عايشوا النظام الإسلامي آنذاك الذي كان يتمثّل بحُكم «المغيرة بن شعبة»، «سعيد بن العاص»، «الوليد»، و«عمرو بن سعيد» وآخرين من أبناء الأشراف من بني قريش الذين كانوا رمزًا للفسق والفجور ونهب المال والرياء، والأسوأ من هذا كانوا أسْرى العَصَبيّات. لقد فهم وأدرك هذا النّسلُ نفسَه ومجتمعَه، لقد رأى حُكامًا تحكمه بلا رحمة. كانوا يقتلون كلَّ مخالفٍ أو يَجرّونه إلى السجن. فِكْر الناس آنذاك واكتشاف طُرُق البحوث الفلسفية في حلَقات

(1) السيد جعفر شهيدي، بعد خمسين عامًا، مصدر سابق.

جلساتِ المساجد فَتَح الطريق أمام الهروب من المسؤوليات الدينية. (وفي النهاية)، كلّما ابتعد المسلمون عن عصر النبيّ كانوا ينسون أخلاق وَصِفات المسلمين، وكانت تنمو يومًا بعد يوم الأفكار الجاهلية في أذهانهم: الأفضلية، البيع العنصري، يستذكرون ماضيهم لِمُنافسيهم، المواجهة بالسّهام والقبائل، وتذكُّر العصبيات القَبَليّة والأحقاد الماضية»[1].

قبل عامٍ من موت معاوية، وفي أيام الحج، جَمَع الإمام الحسين بن علي عليه السلام أبناء هاشم من رجالٍ ونساءٍ ومُوالين، أبناء الإخوة والمُحبّين، وحتى المعارف من أنصار وأهل البيت، ثمّ أرسل رسلًا بأن: «ابعثوا برسولٍ من أصحاب رسول الله مَن كان مشهورًا بِزُهده وتقواه ووَرَعه، واجمعوهم جميعًا معي في أرض مِنى».

في أرض مِنى، وفي خيمةٍ واسعةٍ، جَمَع الإمام عليه السلام مِئتيْ رجلٍ من أصحاب الرسول الذين ما زالوا من الأحياء، وخمسمئة آخرين من التابعين له. ثمّ وقف فيهم خاطبًا: «بعد الحمد والثناء، أمّا بعد، فإنّ هذا الطاغية قد فعل بِنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعَلِمتم وشهدتم، وإنّي أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدقْتُ فصدِّقوني، وإن كذبْتُ فكذِّبوني، وأسألكم بحقّ

(1) السيد جعفر شهيدي، بعد خمسين عامًا، مصدر سابق، ص 107 – 109.

الله عليكم وحقّ رسول الله وقرابتي من نبيّكم لَما سيّرتم مقامي هذا، ووصفتم مقالتي، ودَعوْتم أجمعين في أمصاركم من قبائلكم مَن أَمِنتم من الناس ووثقتم به، فادعوهم إلى ما تعلمون من حقّنا، فإنّي أتخوّف أن يدرُسَ هذا الأمر ويذهب الحق ويغلب... ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾».[1]

وما تُرِك شيءٌ ممّا أنزل الله فيهم من القرآن إلا تلاه وفسّره، ولا شيءٌ ممّا قاله رسول الله في أبيه وأخيه وأمّه، وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه، وكلّ ذلك يقول أصحابه: «**اللهمّ نَعَمْ**، وقد سمِعْنا وشهدْنا»، ويقول التابعيّون: «اللهم قد حدّثَنا به أيضًا مَن نصدّقه ونأتمنه من الصحابة».

قال «سليم بن قيس الهلالي الكوفي»: «فكان فيما ناشدَهم الحسين وذكّرهم أن قال: أُنشدكم الله! أَتعلمون أنّ عليًّا بن أبي طالب كان أخًا لرسول الله حين آخى بين أصحابه فآخى بينه وبين نفسه، وقال: **أنتَ أخي وأنا أخوك في الدنيا والآخرة؟** قالوا: **اللهمّ نعم**».

«أُنشدكم الله! أتعلمون أنّ رسول الله نصّبه يومَ غدير خم، فنادى له بالولاية، وقال: لِيبلّغ الشاهد الغائب؟ قالوا: **اللهمّ نعم!**».

---

(1) سورة الصف، الآية 8.

«ثمّ ناشدهم الحسين بن عليّ عليه السلام مرة ثانية بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من زعم أنّه يُحبّني ويبغض عليًّا فقد كذب، ليس يحبني ويبغض عليًا، فقال له قائل: **يا رسول الله! وكيف ذلك؟** قال: لأنّه منّي وأنا منه، مَن أحبّه فقد أَحبّني، ومَن أَحبّني فقد أحبّ الله، ومَن أَبغضه فقد أَبغضني، ومن أَبغضني فقد أَبغض الله، فقالوا: اللهم نعم، قد سمعْنا وشهدنا». وتفرّقوا على هذا العهد الذي قطعوه للحسين عليه السلام، على أن ينقلوه إلى القبائل والعشائر والمؤتمنين الموثوقين»[1].

بعد عامٍ، مات معاوية واعتلى يزيد عرش الخلافة بِمبايعة الناس له.

إلى أين ذهب أولئك الصحابة والتّابعون الذين بُلّغوا الأمانة من الحسين بن عليّ في منى؟ ألم يكن هؤلاء السبعمئة أهل الحق هم ممّن سمعوا مناشدات الإمام وعهدوا إليه بالولاء في المدن وبين القبائل؟ إن كان هذا هو الحق، فأين ذهب أولئك الأحرار عبدة الحق؟ ألم يبقَ من الجمْع كلّه سوى البضع وسبعين رجلًا ليستجيبوا داعي الإمام وذهب الباقون إلى عالم الأموات؟ ألم يبقَ في تلك الديار رجلٌ يقف بصلابة يطأ الأرضَ بقدمه لينصر الحق؟

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مركز باقر العلوم للدراسات، قم، الطبعة الأولى، 1994، ص 270 – 273.

في منتصف ليلة رجب المرجّب في عام الستين للهجرة، مات معاوية وخلافة المسلمين كما الميراث القبلي أورثهم لولده الأكبر يزيد بن معاوية. لقد وكّل «وليد بن عتبة بن أبي سفيان» الذي كان قد تولّى من قِبَل معاوية حُكم المدينة، ليأخذ له البيعة من «عبد الله بن عمر»، و«عبد الله بن الزبير»، والحسين بن علي عليه السلام. أضاف «ابن شهر آشوب» اسم «عبد الرحمن بن أبي بكر» إلى الأسماء، ولكنّ اسمه لم يُذكر في مصادر أخرى.

عمر بن الخطاب والزبير كانا من أشهر صحابة رسول الله، لكن لم يكن رفْض أبنائهم لبيعة يزيد لكوْنهم دعاة حق وعدالة؛ فلو كان هذا صحيحًا لكان لزامًا علينا أن نراهم إلى جانب الحسين بن عليّ. أما عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فلم يكونا قلقيْن على العدالة وانحراف الخلافة عن طريق الحق، هذان الداعيتان كانا أسيريْ نفسيْهما؛ والإمام عليه السلام على الرغم من علمِه بالحقيقة، لم يُقابلْهما ولو للحظة في جبهة واحدة، والآن يحكم العقل الظاهريّ أن يأوي الإمام الحسين المخالفين السياسيين في خيمته لمبارزة يزيد. أولئك الذين أدركوا عقل معاوية وفكره الشيطاني وسياسته وأيّدوها، واضح وجليّ إنّهم سيلومونه كما لاموا والده عليًّا عليه السلام. ولكن ما الفائدة وماذا سينفعُنا لَوْم أو

مدحَ أهل الزمان؟ ولو تَلَوّث طريق سيد الشهداء بالشوائب والشرك، كيف كان سيبقى طليعةً لكلّ المبارزات ولكلّ طالبي الحق على امتداد التاريخ؟

وليدُ بن عتبة الذي لم يكن مضطربًا آنذاك، لم يستصعب الأمر كثيرًا. لم يكن تقاعُس عبد الله بن عمر خطيرًا، إذ إنّه لم يُبايع عليًّا بن أبي طالب عليه السلام أيضًا. أمّا عبد الله بن الزبير فكان لزامًا عليه أن يستفيد من جزيرة الفتنة الشيطانية، مع أنّه لم يكن داعيةً للحق والعدالة، وكان يصارع من أجل كسْب القدرة.

يذكر المؤرّخون أنّ وليد بن عتبة كان مُحبًّا للصحّة والسلامة، وكان يبتعد عن الحرب، وكان يريد التصرف مع الإمام الحسين عليه السلام كما أراد يزيد بن معاوية. أمّا يزيد فقد ولّى «عمرو بن سعيد بن العاص» ولاية المدينة بدلًا منه. أمّا ليلة السبت في السابع والعشرين من شهر رجب، تمكّن عبد الله بن الزبير من الهرب من المدينة، ومع أنّه أرسل لِوليد رجلًا من بني أميّة مع ثمانين فارسًا على إثره، إلّا أنّ عبد الله تمكّن من الفرار عبر طرقٍ غير معروفة ليصل منها إلى مكة، ويتهرّب من بيعة يزيد.

من هو عبد الله بن الزبير؟

خرج الحسين بن عليّ عليه السلام، كما نعلم، من مكة ليحفظ أمْن حرم الله، أمّا عبد الله بن الزبير، على العكس تمامًا، جعل من بيت الله مأمنًا لنفسه. لقد هجم يزيد بن معاوية على الكعبة، وهدمها وأحرقها ليقتل عبد الله بن الزبير، لكنّه لم يستطع أن يقتله، أو أن يجبره على بيعته. في ذلك العام، «الحجّاج بن يوسف الثقفي» الذي كان مأمورًا من قِبَل خليفة زمانه «عبد الملك بن مروان»، وبعد حصارٍ دامَ خمسة أشهر، حمَل مرةً أخرى على الكعبة، وهدَم جدرانها وسقْفها وأحرَقها، أمّا في منتصف شهر جمادى الآخرة قُتل ابن الزبير في داخل المسجد الحرام.

في يوم سبتِ السابع والعشرين من شهر رجب الحرام، في الليلة التي تلَت استدعاء الحسين بن علي عليه السلام لبيعة يزيد، كانت هنالك مواجهة في أزقة المدينة مع مروان بن الحكم. من هو مروان؟ ولماذا علينا أن نجيب عن هذا السؤال بأنّ من هو مروان؟ القيمة التاريخية لهذا اللقاء مرهونة بمعرفة مروان بن الحكم وأفكاره السياسية، وإلّا فما الهدف من ذِكر هذه الحادثة؟

مروان بن الحكم مشهورٌ بـ«الضفدع ابن الضفدع»، هذه الشهرة تعود إلى حديث في المجلّد الرابع من كتاب «المستدرك» المنقول عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، عين الرسول الباطنية من أيام طفولة مروان، قد رأت الصورة المحشرية له حيث قال: «إنّه ضفدع ابن ضفدع وملعون ابن ملعون». الحَكَم بن العاص والد مروان هو رجل قال فيه النبي: «**لعنك الله ولعن ما في صلبك**». إنّه الحنان الحقيقي بحق، ومظهر الرحمة العامة والخاصة لله تعالى، ماذا رأى من الحَكَم بن العاص حتى يقول عنه هكذا حديث؟ ماذا فعل هذا الضفدع البشع حتى قال عنه نبيّ الرحمة هذا الكلام، وأَبْعده وابنه من المدينة إلى الطائف؟

لقد أمضى مروان بن الحكم التبعيد حتى عهد الحكومة الثالثة للخليفة، وقد كان من المحرِّكين الأساسيين في حرب الجمل، وكان ضمن أَسْرى الحرب الذين شمَلَهم عفو أمير المؤمنين عليه السلام. لكن بعد حرب البصرة، في الشام انضمّ إلى معاوية، وبعد أن تولّى معاوية حكومة المسلمين، استولى على حكم المدينة ومكّة والطائف، أمّا في آخر أيام عمره، حصل ما كان توقَّعه له أمير المؤمنين، وحصل على مرحلة قصيرة من الخلافة، قصيرة إلى حدّ لَعْقة الكلب لأنفه[1].

(1) نهج البلاغة، الخطبة 73. مروان قتل على يد زوجته بعد عشرة شهور من الخلافة.

الآن هو مـروان بن الحكم الـذي يقف في مواجهة الحسين عليه السلام في أزقّة المدينة، وينصحه بمبايعة يزيد، وكيف له أن يقبل نصيحة هكذا إنسان؟ لقد قال الإمام في جوابه: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون وعلى الإسلام السّلام إذا بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد**»، ثمّ قال: «يا مروان أَتُرشدني لبيعة يزيد!! ويزيد رجلٌ فاسقٌ، لقد قلتَ شططًا من القول وزللًا، ولا ألومك، فإنّك اللعين الذي لعنك رسول الله، وأنت في صلب أبيك الحكم بن العاص، ومن لعنه رسول الله فلا يُنكر منه أن يدعو لبيعة يزيد، إليك عنّي يا عدو الله، فإنّا أهل بيت رسول الله الحقّ فينا يُنطق على ألسنتنا، وقد سمعتُ جدي رسول الله يقول: الخلافة محرَّمة على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء...»[1].

في ليلة السابع والعشرين من رجب، وعندما عقد الإمام العزم بالخروج من المدينة إلى مكة، أخذ معه جميع أهل بيته إلا «محمّد بن الحنفية» - أخوه - و«عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» – زوج أخته زينب الكبرى- ثمّ ذهب إلى زيارة القبور. وفي عتمة الليل، سار بطريقه حيث كان يقرأ الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 284 و285.

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. هذه الآية نزلت بحقّ موسى عليه السلام عندما هاجر من مصر إلى جانب مَدْيَن.[2]

وهكذا بدأت الهجرة العظيمة في طريق الحقّ، لقد سارت قافلة العشق في طريق الحق. بلى، تلك القافلة، قافلة العشق، وهذا الطريق، طريق كما سار جميع المهاجرين على مرّ التاريخ. الهجرة هي مقدّمة الجهاد، وليس من شأن ولا من قيمة رجال الله أن يسيروا في طريق غير هذا، وليس من شأن هؤلاء الرجال أن يَبنوا حياتهم الدنيوية، أمّا الحق فيُغفل عنه. في حال يُدير شؤون الدولة الاسلامية الجهّال والفسّاق الفجّار.

لقد قال الإمام في جواب لمحمد بن الحنفية رحمه الله، عندما حاول نصْحه بأن يسير إلى اليمن فقال: «إن لم أجد مأوى في العالم أجمع، لن أبايع يزيد»[3].

دخلَتْ قافلة العشق إلى مكة المكرمة، بعد مسير خمسة أيام، في يوم الجمعة، في الثالث من شعبان.

اسمع ماذا تقول قافلة القادة: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[4]. هل تعلم لَم يقرأ

(1) سورة القصص، الآية 21.
(2) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 299.
(3) المصدر نفسه، ص 289.
(4) سورة القصص، الآية 22.

الإمام آياتٍ نزلت بحقّ أوّل هجرة لموسى عليه السلام؟ إنّ عقلي المحجوب لا يصل إلى أيّ جواب. يا حاملي أسرار الغيب، اكسروا صمت الحجاب الإلهي، خذوا المحبة من شفاه الأسرار المغلقة، وحدِّثونا، آهٍ من قساوة قلوبنا التي حوّلتْنا إلى صُمٍّ بُكْمٍ! آهٍ من قساوة هذه القلوب!

لقد بدأ الجهاد مع الهجرة في سبيل الله، فإلى أين؟ الحياة تبحث عن الراحة والفراغ والأمن والاستقرار. إخواني! ليس الحديث عن أهل الفسق وعبّاد اللذة، إنما الحديث عن أولئك الذين أسْلموا، لكنّهم لم يبحثوا عن حقيقة الإيمان. يبحثون عن الترفيه والرزق الكافي، فرِحين بصلاتهم التي هي كنقْر الغراب. يدعون بألسنتهم، ولكن ما تَكِنّ قلوبهم أدهى، فتذهب أعمالهم أدراج الرياح. هم يبحثون عن مأمن يَقيهم من مكْر الله، ويبحثون عن مكانِ غفلةٍ يأمنهم من البلاءات الإيمانية، وهم غافلون عن أنّ الغفلةَ قشٌّ وابتلاءات الدهر طوفان يكسر الصخور العالية، وفي طريقه إلى الوادي يلفّهم جميعًا فيسوّيهم والتراب.

إن كانت البلاءات هي مَن تصنع الرجال، إذًا أصحابي، هلّموا ننزع حبّ الدنيا من قلوبنا، ونسير في هذا الطريق. إن كانت الرجولة هي الاستسلام للمصير، نحن كما سيّد الشهداء

فلنُجِبْ كما قال: «يا أبا عبد الرحمن أما علمتَ أنّ من هوان الدنيا على الله تعالى أنّ رأس يحيى بن زكريا أُهدِي إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل؟ ألا تعلم أنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيًّا ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئًا، فلمْ يعجل الله عليهم بل أخَذَهم بعد ذلك أخْذ عزيزٍ ذي انتقام[1]، فويلٌ لهم من عذابٍ وَصَفَه الله على هذا النّحو: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2].

آهٍ أيّها الأصحاب! إن كانت في هذه الحياة المُهينة من الرجولة أن يوضَع رؤوس الرجال في وعاءٍ من ذهب، ويُهدى لأبناء البغيّ، فَلْتَكُن، هذه الدنيا وهذه رؤوسنا!

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 308.

(2) جزء من الآية 42 من سورة القمر: ﴿... فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

الفصل الثاني:
الكوفة

أيّها العطاشى لكوثر الولاية! أقبِلوا، لقد وجدتُ نبعًا. واأسفاه! أخْلَيْتُم قلب القبلة، وتطوفون حول جدران حجرية؟ أقبِلوا، فباطن القبلة ها هنا، فلو لم تكن إرادة الله كذلك لكنتَ رأيتَ الكعبة آتيةً تطوف حول الإمام، ولكنتَ شهدتَ الحجر الأسود يبايعه، أوليس هو الإنسان الكامل؟ وغاية كمال الدنيا؟ أيّتها الأمة الأخرى! ما الذي جرى عليك؟ حتى متى الغوْص في محاقّ الغفلة والعمى الذي لا يعرف الشمس؟

مات معاوية وأخذ يزيد البيعة من الناس لخلافته. أمِن الممكن تقديم اليد لبيعة يزيد وبعدها الوقوف بجانب القبلة وإقامة الصلاة أيضًا؟ يزيد الذي لا يعرف القبلة، ويزيد الذي لا يصلّي! أيّتها الأمة الأخرى ما الذي جرى عليك؟

مكة، المدينة، البصرة، دمشق؛ هل بقي في ديار الأموات هذه مَن هو على قيد الحياة؟ هل بقي أحدٌ لم يتغلّب سحرُ الشيطان على نفسه ويسلبه إياها؟ هل هناك من لم يبِعْ نفسه للشيطان؟ وامحمّداه! لماذا لم ترتفع أيّ يدٍ؟ ولماذا لم تعلُ أيّ راية في أيّ مكانٍ لنصرة الحق؟ هل تقطَّعَتْ كلّ الأيادي؟ والألسن أيضًا؟ إذًا، لِمَ لَمْ ترتفع أيّ صرخةٍ لطلب العدالة؟

لقد توقّف الإمام الحسين عليه السلام منذ وصول قافلة العشق إلى مكة، يوم الجمعة في الثالث من شعبان، وحتى الثامن من ذي الحجة، اليوم الذي سوف يترك فيه مكة. أربعة أشهر وبعض الأيام، استعجلت الواقعة الجميع حتى لا تترك لأحدٍ فرصة للتفكير فيها. مع هذا كله، لم يرتفع أيّ نداءٍ من أيّ مدينة سوى الكوفة. نحن نعرف أنّ أهل الكوفة هم بصورة عدم الوفاء، وهذا هو الحقّ! ولكن ألا يجب السؤال لماذا لم تخرج أيضًا أيّ يدٍ من مكة والمدينة والبصرة ودمشق لنصرة الحقّ سوى أولئك السبعين ونيّف الذين سمعتُم عنهم وسمعْنا عنهم؟ ولكن، إذا فكّرنا جيّدًا، لرأيْنا أنّه ربما من العدل أن نقول إنّه لم تصدر أيّ حركة من أرض الأموات تلك سوى الحركة التي صدرت من الكوفة! إنّهم أهل الكوفة أيضًا!

وصل الزمان إلى الجمود، تجمّدت القلوب أيضًا، البكاء حياة القلوب، لقد قُتِل «قتيل العبرات»، فهَلِّمّوا للبكاء، ولندعُ

شمسَ العشقِ إلى ديار القلوب الميتة، أصبحت الثلوج ماءً وانتهى زمن الجماد.

المدينة مَوْطن الأنصار، وجهة هجرة الرسول، رضيَتْ بأن يهاجر منها ابن الرسول وظلّت صامتة. هل صحيحٌ أنّه بسبب انتقال الخلافة من المدينة إلى الكوفة، ارتاح بالُ مدينة الرسول، وأراحت جسدها، وطلبت له العافية؟ إذًا، لمَ هذا الحق؟ إذًا، لماذا عندما أَعلن الحسين عليه السلام عزْمَه على قصد مكّة تاركًا المدينة، لم تَظْهر كذلك أيّ ردّة فعل من الناس تليق بهذا الحدث؟

أودعَتْ مكة نفسها الغفلة أيضًا، وتنحت جانبًا، وانتظرت حتى تصل الأمور إلى خاتمتها.

وفي البصرة، لم يعطِ أيٌّ من قبائِلِها الخمسينَ في المدينة جوابًا لائقًا للإمام إلا قبيلتان. هاتان القبيلتان لم تصلا إلى كربلاء إلا عندما كان الأمر قد انتهى.

أما دمشق، فقد كانت منذ البداية مجال حُكم معاوية وأوليائه. أولئك على طول تلك السنين كانوا قد احتالوا، فقد صبغوا العداوة لعليٍّ بن أبي طالب عليه السلام بصبغةٍ دينيةٍ.

وأخيرًا، الكوفة. أيّ لحن يحمله هذا الاسم، وأيّ حِملٍ ثقيلٍ من الألم يحمله في ذاته! ألمٌ بثِقْل كلّ الآلام التي تحمّلها

عليٌّ عليه السلام من أهل الكوفة. دعْنا نضيف إلى هذه الآلام آلام الزّهراء والحسن والحسين عليهما السلام. حمل بثِقْل كل ألمٍ مخفيّ في هذه الآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[1]. آهٍ آهٍ ما هذا الألم!

جاء في كتاب «بعد خمسين عامًا»، حول الكوفة والكوفيّين:

عندما سأل معاوية فلّاحاً عن أخلاق وأطباع أهل الكوفة، قال الأخير حول أهل الكوفة: «إنّهم يتّفقون على أمرٍ ما، ثمّ ينسحبون منه مجموعة تلو الأخـرى»[2]. ولىّ عبد الملك بن مروان الحجّاج على هذه المدينة، وهو بسياسته الخشنة بل والمتوحشة، حبَس الأنفاس في داخل صدور أصحابها. سنوات قليلة ويمكن رؤية الكوفة وقد تركَت النزاع والصراع والمذهبية، وذلك بسبب التلوّن في المزاج، وتغيير الحال الآني الذي وصّى به معاوية. إذا كنت تريد أن يُقْبَل من أهل العراق تغيير عاملٍ كل يوم عليهم، فعزْلُ حاكمٍ أسهل من مواجهة مئات آلاف السيوف، وعلى ما يبدو كان يرى بوضوح نهاية أمر هؤلاء القوم. فعندما كان يوصيه بخصوص الحسين عليه السلام قال: «أتمنّى أنّ أولئك الذين قتلوا أباه وحقّروا أخاه أن يمنعوا يده عنك». يمكن القول: إنّ أغلبية أهل الكوفة الذين ناصروا

(1) سورة البلد، الآية 4.

(2) جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للنشر، ج 4، ص 64.

عليًّا عليه السلام في حرب البصرة، وبعدها وقفوا إلى جانبه في معركة صفّين، كانوا يريدون أن ينتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى العراق، حتى يستطيعوا الحصول على هذا الامتياز؛ أي أن يقبضوا على مفتاح الشام. المنافسة بين الشامي والعراقي لم تكن جديّة. ما إن مات معاوية حتى علمَت الكوفة أنّها قد حصلت على فرصة مناسبة لإقدامٍ جديد.

ممّا لا شكّ فيه أنّه كانت هنالك مجموعة ليست قليلة من المؤمنين الصافين تعيش في هذه المدينة، قد عانت من تبديل سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي قلوبهم يَحمِلون آلامًا، فهم كانوا يريدون أن يقوم إمام عادل، ويمحوَ بِدَعَ السّنين القليلة الماضية. أمّا أكثرية القوى إذا كانت تدّعي ذات الادّعاء فادّعاؤها كان تغطيةً لهزائمها الماضية، ومن جُملتها الهزيمة في معركة صفّين وكراهية اليماني للمضري[1].

في هذه الأوقات نفسها التي كانت فيها دمشق قلِقة بشأن بيعة عمّال الحجاز، كانت في الكوفة تَجري أحداثٌ تُخبِر عن طوفانٍ مخيفٍ. الشيعة الذين قد قُتل وسُجن منهم المئات وأكثر، سرًّا طوال عشرين عامًا، فترة حكم معاوية، تنفَّسوا الصعداء بمجرّد سَماعِهم نبأ موت معاوية. العابثون الذين

(1) بعد خمسين عامًا، مصدر سابق، ص 102 – 105.

قتلوا عليًّا عليه السلام غـدرًا، وأفرَغوا ساحة ولده، حتى يكون لمعاوية اليد الطولى في الحكم. وبحكم **من أعان ظالمًا سلّطه عليه**[1]، عندما وصل معاوية إلى الحكم وَجد أنّه لا حاجة له بهؤلاء ولم يلتفت إليهم جيّدًا، استفادوا من الفرصة وجاؤوا للانتقام؛ ليشفوا غليلهم من الأب بالابن، بدأت المؤامرات. اجتمع شيعة علي في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، بدأَتِ الخُطب، وصاحب الدار الذي ذاق حلاوة الأيام ومرارتها ورأى تَلوُّن أهل مدينته مرّاتٍ عديدة قال: «أيّها الناس! إذا كنتم تخافون على نفوسكم ولستم رجال عملٍ لا تخدعوا هذا الرجل!». فارتفعت صيحاتٌ من هنا وهناك، أنّه «كلا وكلا نحن سنُضحّي بأنفسنا، وإنّا عاهدْنا بدمائنا أن نقضيَ على يزيد وأن نوصل حسينًا للخلافة!». ثم كتبوا له كتابًا: «فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد، الذي انتزى على هذه الأمة، فابتزّها أمْرها، وغصبها فيْأَها، وتأمّر عليها بغير رضًا منها؛ ثمّ قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبُعدًا له كما بَعُدَت ثمود، إنّه ليس علينا إمامٌ، فأقبِل لعلّ الله يجمعنا بك على الحق، و(النّعمان بن بشير) في قصر الإمارة لسْنا نجتمع معه في جُمعة ولا نخرج

(1) «من أعان ظالمًا سلّطه الله عليه»: حديث نبوي. راجع: علاء الدين علي المتقي، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ج16، الرسالة، بيروت، 1985، حديث رقم 44154.

معه إلى عيد، ولو قد بلَغَنا أنّك قد أقبلْتَ إلينا أخرجْناه حتى نُلحقه بالشام، إن شاء الله، والسلام ورحمة الله عليك».

لم تكن الرسالة التي بعثها بعضٌ من الشيعة الأصفياء الخلّص إلى الحسين عليه السلام هي الرسالة الوحيدة. لقد قالوا إنّه كان هنالك المئات من الرسائل، بل الآلاف منها. ففي مثل تلك الأيام، كانت تأتي رسلٌ من الكوفة إلى مكة يحملون معهم كتبًا. وكانت هنالك رسلٌ في ذهاب وإياب من الكوفة إلى دمشق، يحملون معهم رسائل عدّة، كان قد كُتب فيها إلى يزيد: «إذا أردتَ الكوفة فأرسِل إليها حاكمًا قادرًا وكفوءًا؛ لأنّ النعمان بن بشير رجلٌ عاجزٌ أو يتظاهر بالعجز».

للأسف، لم يحفظ لنا التاريخ نصَّ تلك الرسائل التي أُرسلت إلى مكة ودمشق، ولا أسماء الموقّعين عليها. لو كنّا امتلكْنا تلك المستندات، ولو بقيَتْ تلك الرسائل إلى الآن، لكُنّا رأيْنا كَم أنّ العديد من الجماعات وقّعت على تلك الرسائل بغرض المحافظة على مركزها وخشية من الأيام المخيفة.[1]

ازداد عدد الرسائل كثيرًا، ممّا اضطرّ الإمام عليه السلام للردّ عليها. نفّذ الإمام العهد ذاته الذي أخذه الله من أنبيائه وأوصيائه، في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. نعم، أتمّ الحجّة حضور

(1) بعد خمسين عامًا، مصدر سابق، ص 113 – 115.

أصحاب الحق، ولكن ألا يعرف الإمام أهل الكوفة؟ هل نسي كم تحمّل أبوه منهم؟

أيّ ألمٍ قاسٍ ذلك الألم الذي كانت تتّخذه الأعماق سرًّا؟ ألم يرَ أحدٌ أنّ النخل يبكي؟ لم يكن أحدٌ وقت الغروب بين أشجار نخيل الكوفة؟

كأنّ صوت الإمام المختنق كان يصل من مسافة قرون من التاريخ؛ حيث يقول لأهل الكوفة: «يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلوم الأطفال، وعقول رَبَّات الحِجال! لوددتُ أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة حزتُ والله ندمًا، وأعتبتُ صدمًا. قاتلَكم الله، لقد ملأتُم قلبي قيحًا، وشحنتم صدري غيظًا، وجَرَّعْتُموني نغب التهمام أنفاسًا، وأفسدتم عَلَيّ رأيي بالعصيان والخذلان. إن قلتُ لكم اغزوهم في الشتاء، قلتم: هذا أوان قرّ وصرّ، وإن قلتُ لكم اغزوهم في الصيف، قلتم: هذه حمّارة القيظ، انظرنا ينصرم الحرّ عنا، فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفروّن، فأنتم والله من السيف أفرّ...»[1].

أوَهل نسي الإمام عليه السلام ماذا فعل أهل الكوفة مع أخيه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام؟ تحلّقوا حوله من جهة، ومن

(1) نهج البلاغة، الخطبة 27.

جهة أخرى كتبوا رسائل إلى معاوية أنّه اذا أردتَ نرسل إليك الحسن مُقيّدًا!

نعم، يعرف الإمام أهل الكوفة، ولكنّه عليه السلام ليس مأذونًا أبدًا بترك الحجة الظاهرة في تنفيذ العهد الأزلي. كيف يتجاهل كلّ تلك الرسائل والحُكم على التأويل؟ ومن ذلك الوقت، إذا لم يعتمد الإمام على أهل الكوفة، فماذا يفعل؟ هل يمكنه أن يبايع يزيد، وبعدها يقيم الصلاة بجانب القبلة؟ أيّ مفهومٍ للصلح يمكن أن يكون مع يزيد؟ ماذا يجب أن يحدث مع هذه البدعة الجديدة التي حوّلت الخلافة إلى سلطة موروثة؟ هل يذهب الإمـام إلى اليمن، ويكون آمنًا من شرّ يزيد، ويحيا في الدنيا بقلبٍ مطمئنٍ، ويترك أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليزيد؟ ما الحلّ؟ لقد أوصى معاوية بن أبي سفيان يزيد أن لا يترك الحسين عليه السلام لرأيه؛ إمّا أن يقبل أن يبايع يزيد، ويوافق على تلك البدعة الجديدة في حُكم الإسلام، ويضع التاريخ والمستقبل كله في طريق من الظلمات بلا نهاية، أو أن يرفض مبايعة يزيد. وفي هذه الصورة، هل يجب أن يُترك القطيع لراعٍ تنكّر بوجه الرّعاة وهرب؟

دم الحسين عليه السلام وأصحابه مجرّة تُظهر على سماء الدنيا طريق القبلة، دَع أهل الدنيا بجهلهم. كيف يمكن للعالق في الطين أن يعلم أنّ النشأة الأخرى هي خارج الدنيا؟ سماؤه

وأرضه هي نفسها، وإذا أخرجوه من مستنقع الوحل هذا يموت.

لم يكن لأمّة محمد ﷺ ذلك اليوم إلا الحسين عليه السلام ملجأً وملاذًا؛ سواء علموا بذلك أو لم يعلموا به، وسواء شكروا النعمة أم لم يشكروها. واقعة عاشوراء بوابة من نور يهتدي من خلالها أولئك، فيخرجون من ظلم اليزيديّين إلى نور العشق.

لو لم يكن دم الحسين عليه السلام لتجمّدت الشمس ولم يبقَ في ليل الآفاق أيّ علامة للنور. إنّ الحسين عليه السلام هو عين الشمس.

ازداد عدد الرسائل حتى وصل إلى حدٍّ تمّت الحجة الظاهرة، واضطر الإمام للردّ: «أمّا بعد، فإنّ هانئًا وسعيدًا قدِما عليّ بِكُتبكم، وكان آخر مَن قدِم علَيّ من رسلكم، وقد فهمتُ كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالةُ جُلّكم أنّه ليس علينا إمامٌ فأقبِل لعلّ الله يجمعنا بك على الهدى والحقّ، وإنّي باعثٌ إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، فإن كَتب إليّ أنه قد اجتمع رأيُ ملئكم وذوي الحجا والفضل منكم على مثل ما قدِمَت به رسلُكم، وقرأتُ في كتبكم، أُقدمُ عليكم وشيكًا إن

شاء الله، فلَعمري ما الإمام إلا الحكم بالكتاب القائم بالقسط، الدائن بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله، والسلام»[1].

أرسل الإمام هذا الكتاب مع «مسلم بن عقيل» الذي خطّ أيام الكوفة مع «قيس بن مسهّر الصيداوي». هل يجب أن نكرّر كل ما حصل مع هذيْن المظلوميْن؟

مسلم بن عقيل، مع كل الصعاب التي لاقاها في الطريق والتي تستغرق وقتًا طويلًا في ذكرها، وصل إلى الكوفة. ولكن لم تمضِ بضعة أيام حتى وصل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة. كتبوا: «وصل مسلم الكوفة، في الخامس من شوال 60 هـ فنزل في دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وأقبلَتِ الناس تختلف إليه، فكلّما اجتمع إليه منهم جماعة، قرأ عليهم كتاب الإمام الحسين عليه السلام، وهم يبكون، وبايعه الناس، حتّى بايعه منهم مئة وثمانون ألف، وأقلّه يُذكر اثني عشر ألفًا. عندما رأى مسلم استقبال أهل الكوفة، كتب كتابًا إلى الإمام الحسين عليه السلام، جاء فيه: «أمّا بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وإنّ جميع أهل الكوفة معك، فعجِّل الإقبال حين تقرأ كتابي هذا، والسلام»[2].

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 312.
(2) بعد خمسين عامًا، مصدر سابق، ص 122 – 123.

كان هذا أول الأمر، أمّا نهايته فقد سمعتم بها! أرسل العملاء إلى يزيد رسائل تخبره عن مجيء مسلم. لمّا سمع مسلم بوصول ابن زياد وما توعّد به، خرج من دار المختار سرًّا إلى دار هاني بن عروة ليستقرّ بها، ولكنّ جواسيس ابن زياد عرفوا بمكانه، فأمر ابن زياد بإلقاء القبض على هاني بن عروة وسجَنه. لمّا بلغ مسلمًا خبر إلقاء القبض على هاني بن عروة، أمر مسلم أن يُنادى في الناس: «يا منصور أمِتْ»[1]. فأتى أنصار مسلم من كل حدب وصوب، فقسّمهم مسلم إلى مجموعات، وأوكل كل مجموعة لأحد كبار الشيعة. وهجمت مجموعات على قصر ابن زيـاد. يروي «أبو مخنف» عن «يونس بن إسحق»، عن «عبّاس الجدلي»: «خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف، فما بلغنا القصر إلاّ ونحن ثلاثُمئة. فما زال القوم يتفرّقون ويتصدّعون، تأتي النساء فتمسك أيدي أولادها، أو إخوانها، أو أزواجها، ويعدْنَ بهم إلى المنزل، وكذلك يأتي الرجال فيأخذون أبناءهم ويحذّرونهم قائلين: «احموا رؤوسكم واذهبوا، فغدًا يصل جيش الشام ولن نستطيع الدّفاع». وظلّ الأمر على هذا الحال حتى حان وقت الصلاة. كانت صلاة المغرب عندما أمسى ابن عقيل ومَن معه ثلاثون نفسًا في المسجد، فما صلّى

(1) يعني: «يا منصور، أمِت»، مستلهمة من الآية 33 من سورة الإسراء، شعار المسلمين في معركة بدر.

مع ابن عقيل إلاّ ثلاثون شخصًا. فلمّا رأى ذلك خرج متوجّهًا نحو أبواب كندة، وبلغ الأبواب وليس معه أي أحد»[1].

لعلّ عباس بن جدلي قد بالغ في هذه الرواية حتى يصوّر وحدة وغربة مسلم في الكوفة بصورة مؤلمة أكثر. لماذا؟ لأنّنا نعلم أنّه من بين أصحاب كربلاء إمام العشق، والذين استشهدوا معه في كربلاء، كانوا مع مسلم، ومنهم: «حبيب بن مظاهر» و«مسلم بن عوسجة». ولكن ما الذي حصل حتى إذا خرج مسلم بن عقيل من المسجد لم يكن معه أحد؟ الله يعلم. ليست لدينا روايات حول هذا الأمر. أما ما هو أهم من الإجابة عن هذا السؤال هو أن نعلم لماذا تفرّق أهل الكوفة عن مسلم بهذه السرعة؟ كما كتبوا. في تلك الساعة التي حاصر فيها الناس قصر الإمارة، لم يكن هنالك إلا ثلاثون من الحراس، وعشرون رجلًا من وجهاء الكوفة، وعائلة ابن زياد. ما الذي حصل حتى عجز ذلك المجتمع من الآلاف أن يقوم بأيّ عمل ويقف عاجزًا؟ حضر وقت صلاة المغرب، وما حصل قد حصل؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن تعرف أهل الكوفة. كلّ ما يأتي من تاريخ الكوفة يوضح أنّ أهل الكوفة كانوا دائمًا

(1) الشيخ عباس القمي، منتهى الآمال، حسيني للمطبوعات، طهران، ص 371.

ضعفاءَ أمام الحاكم الظالم. أما المزاح اللّيّن فهو دائمًا ما أعطى الجواب بِسِعة:

كــلّ ظــالمٍ وحــاقــدٍ عــاجــزٌ ومــسـكـينٌ
عــاجــزٌ ومــسـكـينٌ كــلُّ ظــالمٍ وحــاقــدٍ

روح الإنسان التي هي أساس وجود الخوارج اتّخذت لها أساسًا في تُربتهم. ظهرتْ في أهل الكوفة قبل الجميع: الجهل، سرعة الغضب، التظاهر ورؤية الظاهر، التذبذب والتردّد، والإثارة، الخضوع الممزوج بالشّرك في الظلم والتكبّر مقابل المظلوم، التسرّع والإقدام بخطوات غير حكيمة والاستسلام في مقابل التوبة. وقد استعجل الجميع حتى لا يترك لهم فرصة للتفكير والتدبير. بأيّ سرعة قادَهم عملهم إلى الندم؟ ومن العجيب أنّه للتعويض عن ندمهم هذا مشوا في طرق لم يكن لها رجعة!

أيّ معرفة كاملة يعرف عبيد الله بن زياد هؤلاء القوم. دوره في هذه الواقعة هو معبرٌ لكل التاريخ. أرسل جماعة من الأشراف ممّن كانوا معه إلى الناس حتى يزرعوا في قلوبهم الخوف من جيش الشام المزعوم:

«أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا بالشرّ، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنّ هذه جنودُ أمير المؤمنين يزيد

قد أقبلَتْ، وقد أعطى الله الأمير عهدًا: لئن أتممتُم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يحرم ذرّيتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرت أيديها».

وكم تمتدّ نار الشائعة بسرعة في الحقل الجاف! عندما يكون الناس على هذه الشاكلة، فما حاجة ابن زياد ليحمل أسلحةً معه؟ جيش الشام المزعوم! في هذا الوقت، كان لا يزال في اضطرابٍ من موت معاوية. خوف الحجاز واليمن منه ازداد، ولم يكن هنالك من عاقلٍ ليفكّر: لنفترض أنّ مثل هذا الجيش أصبح في الطريق؟ فمتى سيصل إلى الكوفة؟ بعد شهر، بعد عشرين يومًا؟

نجحت حيلة ابن زياد. وتفرّق القوم عن مسلم. أصبح مسلمٌ وحيدًا، على الرغم من وجود رجال من أصحاب عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام كانوا لا يزالون يعيشون في تلك الفترة في الكوفة، ولم يلتحقوا بعد بموكب العشق. عبد الله بن شداد الأرحبي وهاني بن هاني السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي، وحبيب بن مظاهر، ومسلم بن عوسجة وغيرهم؛ أثبتوا لاحقًا أنّهم كان لديهم من الجرأة والقوة ليحاربوا إلى جانب مسلم. فما الذي حصل حتى أصبح مسلم

وحيدًا وغريبًا إلى هذه الدرجة، ويعبر من منزل «طوعة» تلك الخادمة المحرَّرة لأشعث بن قيس وزوجة «أسد الخضرمي»؟

بشكل ما، عرف ابن زياد مكان مسلم عليه السلام، فأرسل إليه «محمد بن الأشعث بن قيس» الذي كان من ثُقاته المعتمَدين ومعه «عمرو بن عبد الله بن عباس السلمي»، وسبعون رجلًا من قيس كي يحضروه ويعتقلوه. فلما سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنّه حان وقت الذهاب، فخرج إليهم بسيفه واقتحموا عليه الدار فشدّ عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ليعطي الأمان لأصحابه. أشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، فأخذوا يرمونه بالحجارة، ويلهبون النار في أطنان القصب، ثمّ يقبلونها عليه من فوق البيت، فلما رأى ذلك خرج عليهم مسلّطًا سيفه وأقبل يقاتلهم وهو يقول: «هل حان وقت إباحة دمك يا بن عقيل؟ فإن كان كذلك فيا نفس هوني فلا مفرّ من الموت...»[1].

أخذوا مسلم إلى القصر وضربوا عنقه، ورموا بجسده من الأعلى. وكذلك هاني بن عروة أيضًا، سحبوه إلى السوق وقتلوه هناك، في حين كان يقول: «**إلى الله المنقلب والمعاد، اللهم إلى رحمتك ورضوانك**»[2].

(1) منتهى الآمال، مصدر سابق، ص 373.
(2) المصدر نفسه، ص 378.

بعد ذلك، وبأمرٍ من ابن زياد، تمّ قتْل «عبد الله علي الكلبي»، و«عـمارة بن صلخة الأزدي»؛ اللذين كانا من مساعدي مسلم في ثورة الكوفة، ومن شجعان هذه المدينة. ثم جرّوا جثّتيْ مسلم وهاني المطهّرتين في أزقة وأسواق الكوفة، وعلّقوهما في حيّ بائعي الأغنام.

كان قيام مسلم في اليوم الثامن من ذي الحجة، والذي يسمّونه بـ «يوم التروية»، وشهادته في يوم عرفة. في يوم الأربعاء، في التاسع من ذي الحجة، الإمام الآن في طريقه إلى الكوفة، ومعه اثنان من أولاد مسلم بن عقيل (عبد الله ومحمد). كنت قد نسيت! إذا كانت رواية «أعثم الكوفي»[1] صحيحة، بنت مسلم ذات الثلاثة عشر عامًا هي في راحلة العشق مع بنات الحسين عليه السلام[2].

(1) أبو محمد أحمد بن علي بن أعثم الكوفي، محدث، شاعر، ومؤرخ شيعي (متوفي سنة 314 هـ.ق.). ذكره بعض المؤرخين باسم «أعثم الكوفي». كتب كتاب «الفتوح» في شرح الأحداث الواقعة بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله حتى نهاية عاشوراء.

(2) منتهى الآمال، مصدر سابق، ص 378.

الفصل الثالث:
مناظرة العقل والعشق.

تهيّؤوا فقد حان وقت الرحيل

العقل يقول لي أن أبقى، والعشق يدعوني للرحيل؛ وكلاهما العشق والعقل، خلقهما الله ليصبح لوجود الإنسان معنى في الحيرة بين العقل والعشق. في اليوم الثامن من ذي الحجة، يوم التروية، علم الإمام الحسين عليه السلام أنّ عمرو بن سعيد بن العاص قد دخل مكّة بجيش جرّار ليعتقل الإمام خفية، ويقتاده إلى الشام، وإذا رفض الإمام سيعتدي على حرمة الحرم، بسفْك دم الحسين عليه السلام.

أولئك الذين يصلّون إلى قبلتهم، ما أدراهم بحرمة الكعبة؟ قبلتهم ليست في مكة حتى يحافظوا على حرمة الحرم المكيّ، كعبتهم هي القصر الأخضر في دمشق الذي يذهل الأبصار. هناك بنوا جنّتهم على الأرض لتعوّضهم عن جنة السماء، ومن

ذلك المكان يحكم الشيطان مملكة الكفر، يحكم الضائعين في برهوت الوهم، الذين ينسجون الخيال إلى جانب جنة الرضوان اللامتناهية، قد وضعوا رؤوسهم في مرتع الغرائز الحيوانية، ويتمتّعون بمساحات في الدنيا تبدو للعين خضراء، ولكنّ الواقع أنّ كلّ هذا سرابٌ يبرز من انعكاس النور في صحراء القلوب الميتة والقاسية.

الكعبة قبلة الأحرار، الأحرار من عبادة غير الله، لكنّ هؤلاء يعبدون صنم النّفس. أحرم الإمام عليه السلام ليتمّ أعمال الحج، ولكنّهم أحرموا ليخفوا سيوفهم المستلّة عن العيون. هتْك حرمة حَرَم الله بالنسبة لهم كأناس يجهلون عظمة الكعبة ليس بالأمر العظيم، وإذا أخبرتهم أنّ الإمام ترك مكة ليتفادى هذه الفاجعة ستصيبهم الدهشة. ولكن، من يدرك أنّ حرم الله هو نقطة الوصل بين الأرض والسماء يعرف مدى عظمة انتهاك حرمة الكعبة، والذي لا يمكن قياسه بأي شيء آخر.

البلاء على وشك النزول، وغيوم السماء تحاصِر مكة من كل جهة مسرعة، وملائكة السماوات ضاق صبرها بانتظار كلمة «كُن»، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. بين كلمتي «كُن» و«فَيكون» فقط حرف «الفاء»، (ف) الفاصلة.

(1) سورة البقرة، الآية 117.

الفاصلة في الكلام فقط لا في الواقع. هل سيأذن الإمام عليه السلام الذي هو باطن الكعبة حدوث بدعة عظيمة كهذه وأن تُهتك حرمة الكعبة بدمه؟ محال.

أنهى الإمام عليه السلام الحج بنية العمرة المفردة، وحين عزم على الرحيل قال لأصحابه:

«**الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله**... خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء، فيملأنّ مني أكراشًا جوفًا، وأجربةً سغبًا».

«لا محيص عن يومٍ خطّ بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشد عن رسول الله لحمته... بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلًا مهجته موطّنًا على لقاء الله نفسه.. فليرحل معنا، فإني راحلٌ مصبحًا إن شاء الله تعالى»[1].

حلّ الصباح، وحان وقت الرحيل، وتهيّأت قافلة العشق لأعظم سفر في التاريخ. إلهي، كيف يمكن أن تكون قد فتحتَ

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 328.

باب رحمتك الخاص فقط على أولئك الذين كان الإمام عليه السلام يحدّثهم ليلة الثامن من ذي الحجة عام 60 للهجرة، وأردت أن تحرم غيرهم من هذه الدعوة؟ أظنّ أنّ حياتهم كانت عصرًا فريدًا في تاريخ الكرة الأرضية. هيهات ما ذلك الظن بك![1] إذًا، لماذا التردّد؟ الطريق الذي سلكتْه قافلة العشق طريق التاريخ ونداء الرحيل، كلّ صباح صار في كل مكان. وإلّا أيّ دعوة لبّى هؤلاء الراحلون في قافلة العشق بعد ألف وثلاثمئة وأربعين عامًا ونيّف؟

الرحيل! الرحيل!

انظر إلى الحيرة بين العقل والعشق الآن!

انظر إلى حيرة العقل وجرأة العشق! دع العقلاء يدعوننا للبقاء. الراحلون في طريق العشق يعرفون أنّ البقاء في الرحيل أيضًا. الحياة الأبدية بجنب الرفيق الأعلى، هو الذي يدعونا إليه ويجذبنا نحوه.

«أبو بكر عمر بن حارث»، «عبد الله بن عباس» المعروف في التاريخ بـ «ابن عباس»، عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأخيرًا محمد بن الحنفية، كلٌّ يحثّ الإمام على البقاء

(1) اقتباس من دعاء كميل.

بطريقته، وذلك الآخر عبد الله بن جعفر الطيار زوج زينب الكبرى، يأخذ للإمام الأمان من «يحيى بن سعيد» حاكم مكة، ولكنّ جواب الإمام عليه السلام لهؤلاء كان جواب العشق للعقل. إذا لم يقم العقل بقطع الرابط بينه وبين منبعه سيصادق فعل العشق دون أيّ تردد.

حين سمع محمد بن الحنفية أنّ الإمام شدّ الرحال إلى العراق، سارع باللحاق بقافلة العشق، وأمسك بلجام الجمل وقال: «يا حسين ألم تعدني ليلة الأمس أن تفكّر في كلامي؟». محمد بن الحنفية أخو الإمام الحسين عليه السلام كان قد حذّره ليلة أمس من قلّة وفاء أهل العراق، وطلب منه مغادرة العراق والذهاب إلى اليمن.

قال الإمام: «نعم ولكن بعد أن تركتك جاءني رسول الله في المنام وقال: يا حسين، امضِ في طريقك فقد شاء الله أن يراك قتيلًا في سبيله»، فقال محمد بن الحنفية: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**»[1].

العقل يقول لي أن أبقى والعشق يدعوني للرحيل، وكلاهما العشق والعقل، خلقهما الله ليصبح لوجود الإنسان معنى في

(1) اللهوف على قتلى الطفوف، السيد بن طاووس، ترجمة السيد أحمد الزنجاني، انتشارات جهان، ص 64 – 65.

الحيرة بين العقل والعشق. إذا لم يقطع العقل الحبل بينه وبين منبع النور سيتبع العشق في الطريق الذي سيسلكه، هنالك لا توجد مسافة بين العقل والعشق.

أرسل عبد الله بن جعفر الطيار، زوج زينب الكبرى عليها السلام، ولديه «عون» و«محمد» ليلتحقا بقافلة العشق، وبعث رسالة معهما إلى الإمام قال فيها: «أستحلفك بالله أن تعود من هذا السفر. إنّي أخاف أن تفارق الحياة وتبقى الأرض دون نورها. ألستَ أنت السراج المنير للمهتدين؟». وكتب لعمرو بن سعيد بن العاص رسالة يطلب فيها الأمان للإمام الحسين عليه السلام فأعطاه الأمان[1].

عجبًا! الإمام مأمن الكرة الأرضية، ولولاه لساخت الأرض بأهلها، وأناس كهؤلاء يعطونه الأمان، وهل يوجد مأمن غير الله تعالى؟

انظر كيف وقع العقل في براثن الجهل! وانظر كيف يجيبه العشق: «من يدعو الناس إلى طاعة الله ورسوله لا يمكن أن يفرّق بين الناس وأن يكون قد خالف الله ورسوله. أفضل الأمان الأمان الإلهي. والذي لا يخاف الله في الدنيا، لن يكون

(1) منتهى الآمال، مصدر سابق، ص 385.

في مأمن من الله يوم تقوم الساعة. وأنا أرجو من الله أن أخافه في الدنيا حتى آمن من غضبه في الآخرة...»[1].

عاد عبد الله بن جعفر الطيار، ولكنّه أبقى زينب الكبرى عليها السلام وولديه عون ومحمد في قافلة العشق.

أيها الأصحاب! هذه القافلة قافلة العشق، وهذا الطريق الذي يصل إلى أرض الطّف على ضفاف الفرات، طريق التاريخ، في كل صباح يأتي نداء من السماء: الرحيل الرحيل. جلّ الله أن يغلق باب العشق هذا بوجه المشتاقين للقائه. أيتها الدعوة المليئة بالفيض على الدوام، التي ترفع أهل الأرض إلى السماء، أعلم أنّ صدركِ أيضًا سماءٌ لامتناهية، مع قلب تتفجّر الشمس بداخله، وأسمع ترانيم نبضاته، حسين حسين، حسين حسين. لا ينبض، بل يغمر وجوده كلمة حسين حسين.

أيها الأصحاب! سارِعوا، فالأرض ليست دار قرار، بل مجرّد مَعبر؛ مَعبر من النفس إلى الرضوان. هل سمعت يومًا أنّ أحدًا حطّ رحاله في مكان عبور؟ والموت قريب منك كما كان في كربلاء، وهل من مؤنس أجدر من الموت؟ الذي إذا كان الدهر وفيًّا معه أعفاه من الموت، الحسين أجدر مني ومنك.

الرحيل الرحيل! سارعوا أيها الأصحاب.

---

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 333.

الفصل الرابع:
قافلة العشق في رحلة التاريخ

قافلة العشق في رحلة التاريخ، وهذا هو تفسير قول: كل يوم عاشوراء، كل أرض كربلاء. وهذا كلام ترتعد له فرائص الشيطان، ويجعل أصحاب الحق في فيضٍ دائمٍ من الرحمة والأمل.

وأنت يا من في عام واحد وستين للهجرة كنتَ لا تزال مخبّأً في ذخائر التقدير، والآن في زمن الجاهلية الثانية، وعصر التوبة البشرية، قد وضعت قدمًا على كوكب الأرض، لا تيأس، فأنت أيضًا عاشورائيٌّ وكربلاء المشتاقة لدمك وتنتظر حتى تفكّ سلاسل التراب من قدمي إرادتك وتهجر النفس وأهواءها، وتلتحق بكهف لا مكان ولا زمان، كهف الولاية الحصين، وتترفّع عن الزمان والمكان فتصل إلى قافلة سنة واحد وستين للهجرة، وتستشهد في ركب الإمام عليه السلام.

أيها الأصحاب! أسرِعوا فالقافلة في الطريق. يقولون إنّ القافلة لا تستقبل المذنِبين؟ نعم، ليس للمذنِبين إلى القافلة من طريق، ولكنها تستقبل النادِمين.

«زهير بن القين البجلي» الذي تعرفونه! يقول رجالٌ من قبيلة «بني فزارة» و«بجيلة»: «عندما خرجنا مع زهير بن القين من مكة، ترافقنا في الطريق فجأة مع قافلة الحسين عليه السلام، هم يقولون: «لم يكن هناك أسوأ من أن نصبح نحن والحسين في منزل واحد، وذلك لأنّ زهير كان من مُوالي عثمان بن عفان الخليفة الثالث».

«وضعنا خِيمنا في جانب، ووضع الحسين خيمه في الجانب الآخر. كنّا نتناول الغداء، فجاء رسول الحسين عليه السلام وسلّم وقال لزهير: أرسلني الحسين لأدعوك إليه، فتركنا الطعام، وجلسنا مُنصتين وكأنّ طيرًا صنع عشّه على رؤوسنا».

يروي «أبو مخنف» نقلًا عن «دَلْهم» ابنة «عمرو»، والتي كانت زوجة زهير: «لقد قلت لزهير: هل يدعوك ابن بنت رسول الله فلا تجيبه؟ سبحان الله! أليس من الأفضل أن تذهب إليه ثم تعود؟ قَبِل زهير وهو ليس راضيًا، وذهب نحو الحسين، ولم يطل الأمر حتى عاد مستبشرًا، وطلب أن ينقلوا خيمته إلى مقربة من الحسين، ثمّ قال لي: أنت طالق

وحرة، ولم يعد برقبتك حقّ لي لأنني لا أريدك أن تبتليَ بسببي، فأنا قرّرت الانضمام للحسين، وأن أقاتِل أعداءه، وأن أقدّم روحي فداه، ثمّ دفع لي مهري، ثمّ أودعني لأحد أبناء عمّه ليعيدني إلى أهلي، ثم قال لأصحابه: من أراد منكم فليلتحق بي وإلا فهذا آخر لقاء لنا. دعونا ننقل إليكم حديثًا من سنوات مضت، حين كنا نقاتل في أرض «بلنجر»، من بلاد الخزر عن سلمان الفارسي الذي عندما رآنا فرحين بكثرة الغنائم قال: «إذا كنتم فرحين اليوم هكذا فكم ستفرحون عندما تدركون آل محمد وتضربون السيف في ركابهم؟» أيها الأصحاب! فاليوم قد وصلت لذلك التقدير المحتوم الذي كنت أنتظره وعليّ أن أودّعكم»[1]. وعندها انضم زهير بن القين البجلي إلى العاشورائيين.

«عبد الله» ابن «سليم»، و«مذري» ابن «المشمعل» من طائفة «بني أسد»؛ قالوا عندما نفرغ من مناسك الحج سنوصل أنفسنا إلى موكب الحسين لنرى أين سيكون مصير هذا الموكب؟ أسرعنا حتى وصلنا إلى موكب الحسين عند منزل «زرود». رأينا رجلًا من أهل الكوفة سلك طريقًا آخرَ كي لا يلتقي بموكب الحسين عليه السلام. والإمام كان واقفًا ليقابله،

(1) انظر: مقتل الحسين لأبي مخنف، أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي، المؤسسة الثقافية للنشر تبيان، طهران 1998، ص 50 – 51.

لكنّه قطع الأمل وانطلق. ولكن نحن وصلنا إلى ذلك الرجل لنسأل أخبار الكوفة. سألنا عن قبيلته، ولأنّنا كنا نعلم أنّه من بني أسد سألناه: «ماذا حصل في الكوفة؟»، فأجاب: «أنا لم أغادر الكوفة إلا عندما رأيت مسلم بن عقيل وهاني بن عروة مقتولَيْن يسحبونهما في السوق على الأرض».

ثـم عدنا وأكملنا الطريق عـلى مقربة مـن موكب الحسين عليه السلام حتى نزل ليلًا في منزل يسمى «الثعلبية»، فكانت فرصة لنصل بأنفسنا إليه فقلنا له: «سـلام الله عليك!... لدينا خبر لك إن أردت نقوله لك سرًا أو جهارًا». نظر الإمام عليه السلام إلى أصحابه وقـال: «أنـا لا أخفي شيئًا عنهم»، فقلنا له: «هل تذكر ذلك الراكب الذي ابتعد عنكم عند الغروب في منزل زرود؟ كان رجلًا من قبيلة بني أسد، رجل حكيم وصادق، أخبرنا بما يجري في الكوفة، كان يقول أنّه قبل خروجه من الكوفة رأى جنازتَيْ مسلم وهاني تُسحبان في الأسواق على الأرض». قال الإمام: «**إنا لله وإنا إليه راجعون رحمهم الله!**»، ثم كرّر هذا الكلام مرات عدة. قلنا: «عودوا من هنا فإنّنا لا نرى أنّ الكوفيين سيساعدونكم، بل يمكن أن يشهروا سيوفهم عليكم». فنظر الإمام نظرة لأبناء عقيل وقال لهم: «ما رأيكم في شهادة والدكم؟»، فقالوا: «لن نعود حتى

ننتقم لدمائه أو نستشهد مثله». فنظر الإمام إلينا وقال: «لا خير في الحياة بعدهما». هنا علمنا أنّ الإمام لن يعود أبدًا.

فقافلة العشق باتت ليلتها في ذلك المنزل عند السحر بطلب من الإمام حملوا الكثير من الماء. وانطلقوا حتى وصلوا إلى منزل «زبالة»؛ حيث أخبروا الحسين عليه السلام أنّ قيس بن مسهّر استشهد أيضًا، ولكن هنالك خلاف في الأخبار المروية: هل أنّ قيس بن مسهّر هو من استشهد أو «عبد الله بن يقطر» (أخو الإمام بالرضاعة)؟ ولكن لا خلاف على كيفية شهادة هذا المظلوم، فهم ألقوا به من أعلى القصر، وقطع رأسه قاضي الكوفة «عبد الملك بن عمير».

الآن، حان الوقت الذي ينفصل فيه صف أصحاب عاشوراء في قافلة الإمام عليه السلام عن باحثي الفرص وأصحاب الهوى؛ لأنّ الجميع يعلمون أنّ الكوفة أصبحت مسخّرة لابن زياد. يهبّ نسيم الموت من الكوفة، نسيم محمّل برائحة الدم. ولكن طرق العودة لم تُسدّ إلى الآن، والصحراء هي وادي الحيرة الذي يمتدّ من اختيار الإنسان ليصل إلى جبروت الحقّ.

بالنسبة إلى أولئك الذين لم يودِعوا الإمام عليه السلام قلوبهم، هذا الـوادي هو ساحة بلا غد، وساحة رعب متعب. أما بالنسبة إلى الأصحاب العاشورائيين أمام العشق، فلقد اتّخذوا

من مدينة الحبيب منزلًا. لقد عبروا الزمان والمكان والجبر والاختيار. ليست الرياح هي التي تهبّ عليهم، هم الذين يهبّون على الرياح. لقد ترفّعوا عن الاختيار، اختيار أنفسهم، حتى لا يكون إلا ما يريده هو. ولأنّ ذلك هو الذي حدث بالفعل، يسطع من مرآة اختيارك جبروت الحق. المرآة التي تقول صورتها «أنا الشمس». أما أنت فلا تسمح لهذه «الأنا» أن تحجب «هو».

في منزل زبالة، جمع الإمام الحسين عليه السلام القافلة وأخذ منهم العهد، وخيَّرَهم في الذهاب أو البقاء، ورد أنه هنا تفرّق الناس عنه بسرعة، وتشتّتوا، ولم يبقَ معه أحدٌ إلا أصحابه العاشورائيين الذين نعرفهم.

أيها القلب! ما تفعل؟ أتبقى أو تذهب؟ آه من ذلك الاختيار الذي يُبعدك عن الحسين عليه السلام! أيّ اختيار هذا لتسلكه عليك أن تدير ظهرك لإرادة الحق. أيها القلب، انظر جيّدًا حتى ترى قلادة الدنيا حول رقابهم، وترى رأس القلادة في يد الشيطان. يعتقد هؤلاء أنَّ هذا الطريق يسير حسب اختيارهم، غافلون، إنّ الشيطان يخدع أصحاب الدنيا بذات الغرائز الموجودة في داخلهم.

عبرت قافلة العشق منزل «شَراف» أيضًا. هكذا انطلقوا في أول النهار حيث الحرارة أقلّ حدة. عند الظهيرة، سمع الإمام أحد أصحابه يكبّر. فقال: «الله أكبر، ولكن لِمَ تكبّر؟»، فأجاب: «إني أرى نخيلًا». ولكن ما رآه لم يكن نخيلًا، كان «الحرّ بن يزيد الرياحي» الذي أتى بألف فارسٍ ليقطع الطريق على الحسين عليه السلام. لم يمضِ الكثير حتى بانت رقاب الخيل، كانت رماحهم كأنّها قرون النخل الحمراء، وكانت راياتهم كأنّها أجنحة الغراب السوداء.

هكذا، من هذه الجهة، يقترب الجيش المفجع، ولكن من جهة أخرى، هذا كوكب حيرة الحر، الذي يقترن مدار مجرّته بشمس وجود الحسين عليه السلام. ولا جرم أنَّ جاذبية العشق تجذبه نحو مدار الحبيب.

أخذ الحسين عليه السلام قافلته إلى جانب جبل «ذو حسم» حتى يتجنّب طريق هؤلاء، وعندما وصلوا إلى سفح جبل «ذو حسم» ونصبوا الخيام، وصل الحرّ ومعه ألف فارس. فما كان أسرع من أن طلعت الخيل وراءهم، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي الرياحي حتى وقف هو وخيله مقابل الإمام عليه السلام في حرّ الظهيرة، والإمام عليه السلام وأصحابه مدجّجون بالسلاح وملثّمون، سأله الإمام: «من

أنت؟» فأجابه الحر: «الحر بن يزيد»، فسأله الإمام: «أنت معنا أم علينا؟»، فقال: «بل عليكم»[1].

ولكن عندما رأى الإمام أثر العطش على وجوههم، أمر فتيانه بأن يسقوا القوم والخيل، ففعلوا. يقول «عليّ بن طعان المحاربي»: «كنت آخر شخص في جيش الحرّ بن يزيد الرياحي وصلت عندما أغلقوا السقاية[2]، وكان الإمام واقفًا عند الخيمة. فلما رأى الحسين ما بي وفرسي من العطش قال: «أنخ الراوية، والراوية عندي السقاء»، ثم قال: «يا ابن أخ! أنخ الجمل». فأنخته فقال: «اشرب». فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء، فقال الحسين: «أخنث السقاء»؛ أي اعطفه، قال: «فجعلت لا أدري كيف أفعل»، فقام فخنثه، «فشربت وسقيت فرسي»[3].

إنّه الحسين عليه السلام، قائد سلسلة العطاشى الذي يروي عدوّه، ولكن لم يحن ذلك الوقت الذي ننشد فيه غزل الفم العطشان الكربلائي.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 354.
(2) بمعنى الحيوان الذي من خلالها يسحب الماء.
(3) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 353 – 354.

كان الحرّ قد أظهر أنّه ليس كاذبًا. وقال في الجواب للإمام حين رمى أمامه أكياسًا ممتلئة بالرسائل: «أنا لست من زمرة الذين أرسلوا لك هذه الكتب!»[1].

كانوا قد أثنوا على الحرّ في كلّ الروايات المرتبطة بواقعة كربلاء، وذلك لتمتّعه بالعديد من الصفات، مثل: الصدق، والشجاعة، والأدب وحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام، وخصوصًا فاطمة الزهراء عليها السلام. وأصلًا، وقائع كربلاء هي شاهدٌ بحدّ ذاتها على أنّ مصباح فطرة الحرية وطلب الحق ما زالت تضيء باطن الحر ولم يحجبه ويطفئه سواد الذنوب. ولكن ما زال هناك مكان لهذا السؤال، ماذا يفعل هكذا إنسان مع سلطة وحكومة أرباب الظلم؟ كيف يمكن الوصول لمنصب كالمنصب الذي كان للحرّ في دار الإمارة في الكوفة، ومع ذلك يبقى ويثبت كما بقي الحرّ وثبت؟ هي «الحرية» التي لا يمكن أن تجتمع مع قبول ولاية الظالمين في مكان واحد!

صحيحٌ أنّ تحليل وقائع التاريخ أمرٌ صعبٌ ومعقّد، سرّ صعوبة البحث في تعقيدات روح الآدميّ. عندما يستقرّ الضباب في عمق الوديان، حتى لو لم تكن الظلمة كاملة، ولكنّ الشمس مخفية، وعين الإنسان لا ترى إلا ما هو أمام قدميه.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 357.

فلو لم يكن هذا خالقًا يمتحننا في دوامة الابتلاءات، لتبدّلت عاداتنا، ولافتضحت الشياطين المخفية في زوايا الباطن المظلمة في ساحة العقل ما يختلجه داخلنا. لطالما كنّا نمضي كلّ عمرنا في هذه الغفلة، ولم نرجع لأنفسنا حتى للحظة واحدة.

هذا الذي أبقى الحرّ في بلاط بني أمية، الغفلة، الغفلة الخفيّة. لعلّ تعبير «غفلة في غفلة» يكون أفضل، لأنّ السبيل الوحيد للخروج من بئر هذه الغفلة هو حيث يتذكّر الإنسان غفلته.

لكلّ إنسان ليلة قدر، والتي سيختار فيها لا محالة، فالحرّ أيضًا حصل على هكذا ليلة، و«عمر بن سعد» أيضًا، ستأتي لي ولك أيضًا. إذا كان باب يا ليتني كنت معكم[1] ما زال مفتوحًا، فلِمَ لا يُفتح ذلك الباب أيضًا: لعن الله أمّة سمعت بذلك فرضيت به؟[2]

قال الحرّ: «أبا عبد الله! لسنا من القوم الذين كتبوا إليك هذه الكتب، وقد أُمرنا إن لقيناك لا نفارقك حتى نأتي بك إلى الأمير». فتبسّم الحسين عليه السلام، ثم قال: «يا بن الحرّ! أوتعلم أنّ

(1) اقتباس من زيارة وارث.
(2) المصدر نفسه.

الموت أدنى إليك من ذلك». ثمّ التفت الحسين فقال: «احملوا النساء ليركبن حتى ننظر ما الذي يصنع هذا وأصحابه!»[1]

لقد جاء هذا الحوار في العديد من المراجع التاريخية. ولكن هل كان الإمام حقًّا يريد العودة؟ أيًّا يكن، فعلى الرغم من ذلك، فإنّ جيش الحر قد حمل ووقف صفًّا قاطعًا طريق الإمام، ليس هناك مجال للشك.

ثمّ صاح بالحرّ: «ثكلتك أمك! ما الذي تريده؟». ما قاله الحرّ بن يزيد في الردّ على الإمام كان جوابًا خالدًا استحقّ عليه أن يُمنح التوبة. بارقةٌ من نور كانت تتفتح في صدر الحرّ، وسفرة ضيافة يحلّ فيها العشق ضيفًا بيت القلب الخفيّ. قال الحر: «أما والله! لو قالها غيرك من العرب وهو على هذه الحال التي أنت عليه لرددتها عليه كائنًا من كان. ولكن لا والله! ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه»[2].

جملة أرباب المؤرخين قد أثنوا على الحرّ لقوله هذا الكلام، والحقّ أيضًا كذلك. الكلام ثمرة بوتقة القلب وانظروا إلى الحرّ تفوح من ثغره رائحة الياسمين؛ هذا الكلام هو ريحانة من رياحين الجنة الآتية من بوتقة أدب الحرّ.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 357.
(2) المصدر نفسه، ص 357 – 359.

عندما رأى الحرّ إصرار الإمـام الشديد وقـرْب حصول المواجهة بينهما، طلب من الإمام عليه السلام أن يأخذ طريقًا بين الكوفة والمدينة حتى تأتي أوامر ابن زياد، طريقًا لا يصل به إلى الكوفة ولا يعيده إلى المدينة.

نجد في بعض المراجع التاريخية تتمّةً لحوار الحر بن يزيد: «أذكرك الله - يا أبا عبد الله - في نفسك، فإنّي أشهد لئن قاتلتك لتقتلنّ، ولئن قوتلت لتهلكنّ فيما أرى!»، فقال له الحسين: «أَفَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُني؟ وَهَلْ يَعْدُو بِكُمُ الْخَطْبُ أَنْ تَقْتُلُوني؟لَيْسَ شَأْني شَأْنَ مَنْ يَخافُ الْمَوْتَ، ما أَهْوَنَ الْمَوْتَ عَلى سَبيلِ نَيْلِ الْعِزِّ وَإِحْياءِ الْحَقِّ! لَيْسَ الْمَوْتُ في سَبيلِ الْعِزِّ إلاّ حَياةً خالِدَةً وَلَيْسَتِ الْحَياةُ مَعَ الذُّلِّ إلاَّ الْمَوْتَ الَّذي لا حَياةَ مَعَهُ. أَفَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُني؟ هَيْهاتَ طاشَ سَهْمُكَ وَخابَ ظَنُّكَ لَسْتُ أَخافُ الْمَوْتَ، إِنَّ نَفْسي لأَكْبَرُ مِنْ ذلِكَ وَهِمَّتي لأَعْلى مِنْ أَنْ أَحْمِلَ الضَّيْمَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ, وَهَلْ تَقْدِرُونَ عَلى أَكْثَرَ مِنْ قَتْلي؟! مَرْحَبًا بِالْقَتْلِ في سَبيلِ اللهِ، وَلكِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلى هَدْمِ مَجْدي، وَمَحْوِ عِزّي وَشَرَفي، فَإِذًا لا أُبالي بِالْقَتْلِ»[1].

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 359 – 360.

تقدّمت قافلة العشق حتى وصلت عند صلاة الصبح إلى «البيضة»، وهو منزل ما بين «عذيب الهجانات» و«واقصة». وصل الحرّ مع جيشه أيضًا. عجبًا من أولئك يصلّون جماعة مع الإمام عليه السلام! إذا كانوا قد قبلوه في الصلاة مقتدى، إذًا فما الداعي لما يفعلون؟

إذا كان هناك من يعتقد أنّ فصل الدين عن الدولة هي فكرة خاصة لهذا العصر فهو مخطئ، فليأتِ وليرَ أنّه هنا أيضًا بعد نصف قرن من حجة الوداع، كأنّ الباطل هو الحاكم. حكّام الجور على طول التاريخ لم يكن لديهم سبيل سوى أن يكونوا دعاةً لهذا الفكر، وإلّا فالشعب يقبل الدين مع الدولة، وبالفطرة والحق هو كذلك أيضًا. ولكن هنالك نقطة هامة أخرى وهي أنّ ظاهر الدين المنفكّ عن حقيقته لا يكون رافضًا لأن يجتمع مع الكفر والشرك. أصلًا، عندما ينفصل الدين عن باطنه، فلا بد أنّه سيأخذ منحًى مثل هذا الطريق.

بعد أن أدّى الإمام عليه السلام صلاة الصبح، وجد فرصة ثانية للكلام مع جيش الحر: «أيها الناس! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى منكم سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقًا على الله أن يدخله مدخله»، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا

طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم، إنّكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين ابن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم فيّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنُكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم...»[1].

ثمّ واصل موكب الحسين مسيره، حتى وصل إلى «قصر بني مقاتل»، فأمضوا الليل هناك حتى يملؤوا القربات في آخر الليل وينطلقوا ثانية.

قال «عُقبة بن سمعان»[2]: «لمّا ارتحلنا من قصر بني مقاتل، وسرنا ساعة، خفق الحسين عليه السلام برأسه خفقة، ثمّ انتبه وهو يقول: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين**»، ففعل ذلك مرّتين أو ثلاثًا». «الاسترجاع» هو علامة لأمر عظيم حصل لقائله، أيّ أمرٍ حصل للإمام عليه السلام؟

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 360 – 361.
(2) هو ابن «الرباب» زوجة الإمام الحسين عليه السلام الذي بقي حيًّا في واقعة كربلاء.

فأقبل إليه ابنه عليّ بن الحسين عليه السلام على فرس له، يسأله: «يا أبتِ جُعلت فداك، ممّ حمدت الله واسترجعت؟». قال عليه السلام: «يا بنيّ، إنّي خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس، القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم. فعلمت أنّها أنفسنا نُعيت إلينا». قال عليّ الأكبر: «يا أبتِ - لا أراك الله سوءًا - ألسنا على الحقّ؟»، قال عليه السلام: «بلى، والذي إليه مرجع العباد». فأجابه عليّ الأكبر: «يا أبتِ، إذًا لا نُبالي، أوقعنا على الموت أو وقع الموت علينا». فقال له عليه السلام: «جزاك الله من ولد خير ما جزى ولدًا عن والده»[1].

وكأنّي بقافلة العشق القاصدة للكوفة وعهودها تصل نينوى، وإذا براكب يلوّح لهم، راكب عليه سِلاح. هو رسولُ ابن زياد إلى الحرّ، وهو «مالك بن نسر الكندي». عندما اقترب، رمى السلام على الحرّ وأعوانه، ولم يعتنِ بالإمام. كان يحمل كتاب ابن زياد الذي يقول فيه: «جَعْجِعْ بالحسين حتّى تقرأ كتابي، ولا تُنزِلْه إلاّ بالعَراء على غير ماء وغير حِصْن!».

«يزيد بن زياد بن مهاجر الكندي» الذي كان أحد أصحاب الإمام العاشورائيين، وكان قد أوصل نفسه قبل الحر إلى قافلة العشق، قال لرسول ابن زياد: «أمالكُ بن النَّسر أنت؟!»، قال: «نعم.» فقال له يزيد: «ثَكلَتْكَ أُمُّك! ماذا جئتَ به؟»، قال

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 368 – 369.

مالك: «ما جئتُ به أطَعتُ إمامي، ووَفَيتُ ببيعتي!»، فقال له يزيد: «عَصَيتَ ربَّك وأطَعتَ إمامك في هلاك نفسك، وكسبتَ العار والنار! ألم تسمع قولَ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1]، هو سوف يأخذك إلى جهنم»[2].

هناك أرضٌ قاحلة بلا ماء أو نبات بالقرب من نينوى، ولم تكن كربلاء أيضًا، بل «العشق» هو من أوجد كربلاء. وطلب الحرّ بن يزيد من القوم النزول هنا. قال الإمام: «دعنا ننزل في إحدى هذه القرى القريبة، نينوى، الغاضرية، أو الشفية». الحرّ الذي لم يصبح «حرًّا» بعد قال: «لا، لا أستطيع ذلك، هذا رجل قد بُعث إليّ عينًا». فقال زهير بن القين: «يا بن رسول الله، إنّ قتال هؤلاء أهون من قتال مَن يأتينا من بعدهم، فلعمري، ليأتينا من بعد مَن ترى ما لا قبل لنا به». فقال له الحسين عليه السلام: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»[3].

اقتربت قافلة العشق من منزلها الخالد الأخير، وهذه عاقبة العشق، كلما كان يسير موكب الإمام في وجهة، كانوا يقودونه إلى جهة أخرى، حتى وصل يوم الخميس في الثاني من محرم، عام واحد وستين للهجرة إلى كربلاء.

---

(1) سورة القصص، الآية 41.
(2) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 372 – 373.
(3) المصدر نفسه، ص 373.

الفصل الخامس:
كربلاء

وقف الإمام وخطب خطبة كربلائية: «أما بعد، إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ وأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصَابَّةِ الْإِنَاءِ وَخَسِيسُ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَبِيلِ».

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُنْتَهَى عَنْهُ، لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحِقًّا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا، إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَالدِّينُ لَعْقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُون»[1].

آهٍ من الألم المخبوء في هذا الكلام! أمّا سر أسرار هذه الخطبة فهو في هذه العبارة: «ليرغب المؤمن في لقاء ربه»؛ بمعنى إنّ الدهر يدور في محور السفليين! لتمرّ بلا امتحان،

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 355 – 356.

وهذه البلاءات تصل مرافقةً لتزداد رغبتك بلقاء خالقك. إذًا، أيها القلب تحرّك لنوصل أنفسنا إلى كربلاء!

تقول: ألم ترَ رأس إمام العشق على الرمح؟ ألا تشتمّ رائحة الدماء؟ لقد مرّ الزمان وما عاد يمكننا فعل شيء. لكن أيها القلب، التفِت جيّدًا للكلام المرمّز ماذا سيخبرك: كلّ يومٍ عاشوراء وكل أرضٍ كربلاء، يعني حتى لو كانت القبلة باتجاه الكعبة لكن أينما تولّوا وجوهكم فثمّ وجه الله[1]؛ يعني إنّ كلّ أرض وقع عليها جسدك المقطّع أرضًا هناك هي كربلاء، ليس بالنظر إلى اللفظ والاستعارة في الكلام، بل بالحقيقة. وكلّ زمان رفع فيه علمك ولواؤك هو عاشوراء، أيضًا هنا ليس بالتشبيه أو الاستعارة في الكلام. فإذا اعتبرنا في سفر التاريخ أنّ هذه قافلة العشق سيكون الأمر كذلك.

ليرغب المؤمن في لقاء ربه؛ ما هذا السر المكنون في هذا الكلام! كربلاء مزيج من الكرب والبلاء، وبلا أفق طلعت شمس الاشتياق. وذلك العطش الذي أحسّ به الكربلائيون هو عطش السرّ، ولو لم يصل الكربلائيون إلى قمة ذلك العطش الذي نعرفه جميعًا، فكيف ستصل أرواحهم إلى الرحيق المختوم في الجنة؟[2] ذلك الشراب الطهور الذي سمعتم أنّه يُسقى لأهل

(1) سورة البقرة، الآية 115.
(2) إشارة إلى الآية 26 من سورة المطفّفين: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾.

الجنة، حانته كربلاء، وروّاده هم أولئك السكارى مقطّعو الأوصال على رمال كربلاء. ذلك الشراب الطهور الذي سمعتم عنه، هو فقط لأولئك العطاشى وساقيهم الحسين عليه السلام، الحسين سيشرب من كأس الحبيب، ونحن من كأس الحسين.

ألا يا أيها الساقي أدِر كأسًا وناوِلها

في البداية، لم يرد عمر بن سعد بن أبي وقاص أن يصل الأمر بينه وبين الحسين عليه السلام إلى الصراع. لكلّ ليلةٍ قَدَرٌ سيكون محتومًا عليه الاختيار لا محالة، وعمر بن سعد أيضًا سيصل إلى هذه الساعات، لكنّه الآن يفرّ والدهر في إثره؛ ليسحبه إلى ليلة القدَر هذه.

عمر بن سعد هو ابن سعد بن أبي وقاص فاتح القادسية، وهو أحد العشرة الذين يُقال إنّ رسول الله عند احتضاره كان راضيًا عنهم. لم يمرّ نصف قرن على رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ها هو ولد أبي وقاص يقف في مقابل فلذة كبد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيّه. لقد سعى ابن سعد كي لا تصل الأمور إلى الصراع مع الحسين بن علي عليه السلام، لكنّ الدهر لا يترك أحدًا دون امتحان، يقف بصمت وصبر ليرميك في شِباكه ليوصلك إلى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾[1].

(1) سورة الفجر، الآية 14.

يمكننا أن نفهم من هو ابن سعد من حواره في يوم التاسع من المحرم؟ يقول الإمام: «ألا تخشى الله؟ وإنّ معادك إلى الله، عزمت على قتالي وفي نفس الوقت تعتبرني إنسانًا جيدًا وتعلم أنا ابن مَن. تعالَ واترك القوم ورافِقني لتتقرّب من الله».

كان ابن سعد يحتجّ تارة بما يملك، وتارة أخرى بعائلته؛ حتى فقد الإمام عليه السلام أمله منه، واستدار ليعود وهو يقول: «بم تفكر؟ ألا تعلم إنّهم سيقتلونك في فراشك، وستُحرم الرحمة الإلهية يوم القيامة؟ والله إنّه ليقرّ بعيني إنّك لا تأكل برّ العراق بعدي إلا قليلًا». هذا الكلام رماه الدهر في طريق ابن سعد ليكون كمينًا له، ويتفوّه بالسخرية من الإمام عليه السلام فيقول: «إن لم يكن هناك من قمح فهناك الشعير!»[1] ؛ ليستقر بسبب هذا الكلام في هاوية اللعنة الإلهية. وهل هناك من فرصة للنجاة أمام عمر بن سعد؟

كان كلّ سعي الإمام أن ينجي ابن سعد من الورطة التي ورّط نفسه بها، لكنّه لم يصل إلى أي نتيجة. يُذكر في كتب التاريخ أنّ الإمام عليه السلام كان يسعى حتى يوم التاسع من المحرم في لقاءات عدة أن يحذّر ابن سعد، حتى ولو لم يذكر لنا إلا القليل ممّا وصلنا، لكنّ سيرة الإمام الحسين عليه السلام

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 387.

السياسية تتمتع بقدر من الوضوح والشفافية، إلى حدٍّ أنّها لم تترك مكانًا لأيّ شبهة.

من الجليّ أنّ الإمام عليه السلام كان يبحث في مستنقع وجود وكيان عمر بن سعد عن جوهرة نقية، علّها تنسجم يومًا مع محيطات الحرية، وتكون فيها إشارة من أمل وحياة، لعلّه يجد في قبر عمر بن سعد المظلم هناك بقعة ضوء من الفطرة الإلهية ما زالت تضيء بالحياة!. الإمام هو شمس كرامة لا تغيب حتى عن الضائعين. أما لاحظت يومًا إنّ الشمس تطلع أيضًا على الآبار المظلمة الحقيرة؟ ألم ترَ الماء كيف تصل إلى أحقر بقاع الأرض ووديانها؟ كيف يمكننا أن نقيس عملنا مع عمل العظماء الأطهار؟ هناك عهد بين الإمام عليه السلام والله لا يبلغه إلا هو، وعلى هذا العهد يثبّت الإمام قدمه.

لا! إنّه ليس سرًا كأسرارنا جميعًا. ولاية الإمام المعصوم على المخلوقات هي ولاية الله، يعني إنّ بقاء كل ذرّات الوجود من رأسها إلى أخمص قدميها هي بأمر من سيدنا ومولانا الإمام المعصوم عليه السلام، لكنّهم هم أنفسهم لا يعلمون بأمر هذه الجذبات. إن لم يجذبنا هنيهة إلى كوخ الحبيب ولم يتركنا عند أقدامه، كلّنا سنفقد الطريق. ألم ترّ أنّ السماء ليس فوقها شيء، لكنّها تظهر في حفر المياه الحقيرة؟ كان الإمام يبحث في داخل وحول وجود عمر بن سعد عن طريقٍ إلى البحر، بحر

الحرية، البحر الذي يصل إلى المحيط، زهير بن القين مع أنّه لم يكن يريد إلا أنّ الإمام جدّد العهد والوعد معه.

لم يرد عمر بن سعد أن تصل الأمـور مع الإمام عليه السلام إلى الصراع. هذه الحقيقة ظاهرة في رسالته لابن زياد حين قال: «لقد أخمد الله النيران، وسرى الاتفاق، وصلحت أمور الأمة...»، لكنّه حاول كتمان باطنه عن ابن زياد، لكنّ ابن زياد كان أمكر من أن يقع في شباك عمر بن سعد فقال: «هذا كتاب رجل خيّر ينصح أميره ويخاف على قومه»[1].

لقد شاءت يد القدر أن نجمع أمرنا ونتمّه. «شمر بن ذي الجوشن» أيضًا جاهز ليشجعه ابن زياد بكلامه المعسول... إذا ترك الله الإنسان، فالدهر يتكالب عليه، لكن كم يمكن للإنسان أن يكون شرّيرًا، ليساعد الله الإنسان بهكذا فعل مشين؟

لقد تلقّى شمر أمرًا من ابن زياد ليوصله إلى ابن سعد، حتى إذا تخلّى ذلك المنحوس عن الحرب ضد الحسين عليه السلام، فيتولى حينها الشمر القيادة. أما عمر بن سعد فتُضرب رقبته، ويُرسل رأسه إلى ابن زياد. لقد أوصل رسالة ابن زياد لعمر بن سعد، وانتظر الردّ. كتب ابن زياد: «أمّا بعد، إنّي لم أبعثك إلى الحسين لتطاوله، وتكفّ عنه، ولا لتمنّيه السلامة والبقاء، ولا

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 389.

لتقعد له شافعًا عندي. انظر: إن نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا، فابعث بهم، وإن أبوا، فازحف إليهم حتّى تقتلهم وتمثّل بهم، فإنّهم لذلك مستحقّون. فإن أنت فعلت جزيناك خيرًا، لأنّك السامع المطيع، وإن أنت أبيت، فاعتزِل عملنا وجندنا، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، والسلام»[1].

لقد أدرك عمر بن سعد ما فعله شمر بن ذي الجوشن، لكنّه كان يعلم جيّدًا أنّ الحسين عليه السلام لن يستسلم. هذه هي الجملة التي نُقلت عنه في وصف الحسين عليه السلام التي قالها للشمر: «والله إني أرى قلب عليٍّ بين جنبي الحسين»، عندئذ أوكل إليه أمر المشاة وتحضّر للقتال[2].

في ليلة العاشر عندما قرّر عمر بن سعد أن يحمل عليهم، نادى: «يا خيل الله اركبي وأبشري[3]!، «يا للعجب! إنّه الكلام نفسه الذي نطق به أبوه سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية. هل حقيقة لم يعرف عمر بن سعد ما عليه أن يفعل؟ أم أنه مثّل دور الجهلاء؟

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 389.
(2) منتهى الآمال، ص 402.
(3) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 390.

لم يمضِ نصف قرن على حجة الـوداع، وقد شهرت أمة محمد ﷺ السيف على أوصيائه وباسم الإسلام، قلب الإسلام الذي هو الإمام المعصوم عليه السلام! أجسامهم تصلّي ناحية القبلة ولكن أرواحهم ما زالت معلّقة بتلك الأصنام التي يعبدونها، والتي كسرها إبراهيم عليه السلام. أجسادهم تصلّي ناحية المسجد الحرام، ولكن أرواحهم تصارع باطن القبلة وأصلها أي الإمام عليه السلام، للجاهلية في قلوبهم أثر، وإن لم يؤمن ذلك المشرك عابد الأصنام في قلب هذا الإنسان، ما نفع أن يلفظ بلسانه لا إله إلا الله؟ عندها يترك جانب العدالة والقبلة. يرى القبلة صنمًا من حجر يعبدها خمس مرات في اليوم، فيركع ويقوم أمامها. ويطوف حولها مرات عدة في العام. يا ليته اكتفى إلى هذا الحد، ولم يقطع قلب القبلة بالسيف!

عجبًا! انظر إلى العالم كيف ينقلب بسهولة! ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]؟

(1) سورة الملك، الآية 22.

الفصل السادس:
ناشئة الليل

لقد وصلت الأرض في سفرها السماوي إلى عصر تاسوعاء، وأخذت الشمس إذن الغروب من الإمام عليه السلام. إذًا، لم يبق إلا مسافة قليلة لذلك النبأ العظيم، والسماء والأرض في انتظار. عطشان هو الفرات والصحراء أكثر عطشًا، والإمام أكثر عطشًا من الفرات والصحراء. الفرات عطشان لِمسْك أهل الحرم والصحراء عطشانة لدم الإمام، والإمام أكثر عطشًا من الفرات والصحراء. لكنه ليس ذلك العطش الذي يُروى بالماء؛ هو نبع العطش. وأنت تعلم أنّ كل الأسرار وُضعت في خزانة مغلقة لا تُفتح بغير مفتاح العطش. الإمام هو نبع السرّ وصحراء الطف ساحة تتجلّى فيها مكنونات حجاب التكوين بلا نقاب. وإلّا لماذا سمّوا هذا المكان عالم الشهادة؟ وهل يمكن أن يقال عنه كلامٌ أوضح من ذلك؟

اقترب غروب تاسوعاء، والإمام على مدخل مخيّم الأسرار، متكئٌ على سيفه ينظر في الملكوت. عمر بن سعد قد أعطى الأمر: «يا خيل الله اركبي وأبشري»، وأولئك التائهون على هوّة الوهم، جيش الشيطان، قد امتطوا خيلهم ليحملوا على مخيّم آل الله، وقد ملأ هول ضجيجهم أرجاء الصحراء.

جاءت زينب الكبرى عليها السلام إلى خيمة الحسين عليه السلام، فرأته عند باب الخيمة متّكئًا على سيفه، وقع نظرهما على بعضهما بعضًا. لقد جاء رسول الله يبشّره باللقاء صلى الله عليه وآله وسلم. رفع الإمام عليه السلام رأسه، ونظر إلى مختزنة عالم الألم: «إنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال لي: إنّك تروح إلينا»[1]، فانهار قلب زينب عليها السلام من هذا التجلّي.

أهل الكساء في انتظار خامسهم، حتى ينتهي يوم البعثة بغروب يوم عاشوراء، وتغرب شمس الرحمة النبوية ويبدأ الليل. ليل النقمة الذي كان مخفيًا في باطن رحمة الحق. ليلٌ طويلٌ ديجور؛ ليلٌ مظلمٌ، يأخذ النور فقط من كواكب الإمامة. وكم هي بعيدةٌ هذه الكواكب عن الكرة الأرضية! ونحن هنا تائهون على سفينة سماوية في سفر طويل وصعب؛ في سفر ألف وأربعمئة عام. هي كواكب النور، النور المطلق! وأنت

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 390 – 391.

هنا على ضفة السماء، في ليل مظلم عاجز، وجناحك مكسور، ولا يصل إليك سوى نور ضئيل. ولكن في الباطن، هذه النقمة هي وليدة رحمة تضع من بين الدماء والألم على كوكب الأرض قدمًا؛ كوكب الألم! وأنت الآن المسافر في ليل طويل، يشخص نظرك إلى الأفق شوقًا للنهار. وما كان ليكون هذا الاشتياق لو لم يكن ذلك الليل الطويل البعيد. زهرة وجود الآدمي هي تربةً خُلطت بالدمع، ونضجت في تنور الألم. زينب الكبرى عليها السلام هي مختزنة عالم الألم. وهكذا أعرفها! هي حاملة لأثقل الآلام المخفيّة في هذه المباركة: لقد خلقنا الإنسان في كبد. هي وارثة بيت أحزان فاطمة عليها السلام، وبيت الأحزان قبلة آلام الإنسان.

عندما أدرك الإمام أنّ عمر بن سعد يريد البدء بالحملة قال: «يا هؤلاء، إنّ أبا عبد الله عليه السلام يسألكم أن تنصرفوا هذه العشيّة حتّى ينظر في هذا الأمر». لم يعطِ عمر بن سعد جوابًا ووقف. فقال «عمرو بن الحجاج الزبيدي»: «سبحان الله! والله لو أنّهم من الترك والديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم، فكيف وهم آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ؟!»[1]. فأجابوهم إلى ذلك، ومشهور أنّهم يقولون إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد قال للعباس عليه السلام: «ارجعْ إليهم، فإنِ استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة، وتَدفعهُم عند العشيةِ لعلّنا نُصلّي لربِّنا الليلةَ وَندعوه

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 392.

وَنستغفره، فالله يَعلم أنّي أُحبُّ الصلاة لَه وَتلاوةَ كتابهِ وَكثرةَ الدعاءِ والاستغفار»[1].

وما حاجة الإمام لهذه الليلة الواحدة حتى يقول ذلك؟ من يكشف لنا هذا السر؟

أصحاب العشق ينتظرهم ألمٌ عظيم. السير نحو مذبح العشق. الأعناق على سيوف الظلم، يـروون العطش بدم الصحراء، ولا يستطيعون التقاط أنفاسهم! كيف كان يمكن الصبر على هذا الألم العظيم لو لم تكن ناشئة الليل؟ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ... قُمِ ٱلَّيۡلَ ... إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[2]. حمّل الوحي الرسولَ ﷺ أيضًا هذا القول الثقيل لقيام الليل. وبكل ّهذا، بروح تجلّى فيها الرب الأعظم، يجلس مثقلًا، تسبيحة النهار الطويل تتطلّب ناشئة الليل. وإلا من أين للإنسان ذلك الصبر الذي يتحمّل به هذا الألم العظيم؟ ولكن لماذا الليل؟ أيّ سرّ مخفيّ في الليل لا يكون في النهار؟! وكيف لأهل الخربة أن يدركوا حقيقة هذا السرّ؟

الليل هو مخيّم السر والحرم هو سرّ العارفين، ورمز ذلك مكتوبٌ على لوح سماء الليل، إذا كنت تستطيع فاقرأ تجلّي

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 392.
(2) سورة المزّمّل، الآيات 1 و 2 و5.

ملكوت الإيمان يكون نورًا، وبهذه العين التي هي عين أهل السماء تكون الأرض سماءً أخـرى، تتزيّن بمصابيح وجود المؤمنين، الليل ساحة تجلّي روح العارف. حتى لو أظهرت الأيام غيرهم وأخْفَتْهم، بقي العارفون كواكب بهذه الصفة.

الإمام عليه السلام، وعلى مقربة من غروب الشمس، جمع أصحابه حوله ليخطب فيهم، وحضر عليّ بن الحسين عليه السلام على الرغم من مرضه الشديد ليسمع كلام الإمام عليه السلام: «أما بعد... فإني لا أعلم أصحابًا أولى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعًا خيرًا. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا، ألا وإنّي قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعًا في حلّ ليس عليكم منّي ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا، ثم ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثمّ تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله فإنّ القوم إنّما يطلبونني ولو قد أصابوني لهوًا عن طلب غيري».

عندما وصل الكلام إلى هذا المقام، اعـترض الأصحاب واعتذروا: «لمَ نذهب؟ لنعيش بعدك أيامًا؟ فليبعد الله عنا هذا الذلّ! ليته كانت لدينا المئات من الأرواح لنفديها في طريقك».

كان العباس عليه السلام أول من بدأ بالكلام واتّبعه الباقون. فأجاز الحسين عليه السلام أبناء مسلم بن عقيل وقال لهم: «ألم تكفكم شهادة والدكم مسلم بن عقيل لتضيفوا إليها مصائب أخرى؟».

غليان النار أحدث زلـزالًا يهزّ الجبال العالية، ويشقّ الصخور المتراصّة، ويفتح طرق النيران، قال عندها «مسلم بن عوسجة»: «يا بن رسول الله، أنحن نخلي عنك؟ ولِمَ نعذر إلى الله في أداء حقك؟! أما والله! حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك، حتى أموت معك». وقال «سعيد بن عبد الله الحنفي»: «والله لا نخلّيك حتى يعلم الله إنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيك، والله لو علمت أنّي أُقتل، ثم أحيا، ثم أُحرق حيًّا، ثمّ أُذرّ، يُفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك؟ وإنّما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدًا»[1].

قلب الأحرار الرقيق هو نبع زلال يتفجّر بشدة من قلب صخرة. قلب المؤمن الذي تعرفه هو جامع الأضداد: يملك

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 401.

الرحمة والشدة معًا، والرقة والصلابة معًا أيضًا، وتلك التي أصابت أجسادهم القوية هي من نار تشتعل في داخلهم، والدموع أيضًا، وكانت من تلك النيران، وكلها بسبب حزن الإمام عليه السلام.

إماماه، وأنا أيضًا لديّ كلام أقوله لك لو تعطيني الإذن لأقوله: «أنا لم أكن في صحراء كربلاء، ومنذ ذلك اليوم مرّ ألفٌ وأربعمئة عام، أوليست كربلاء أرض الابتلاءات المهولة؟ وأيّ فرد لم يُمتحن ببلاء كربلاء لن ينجو من الدنيا؟ لقد تركت أولئك الذين لا يليقون، مرادي أولئك الذين قالوا يا ليتنا كنا معكم فدعني أجلس في مجلس أصحابك وأبكي مع الباكين».

لقد غربت شمس تاسوعاء الحمراء في أفق النخيل، جانب الفرات، وأودعت أرض كربلاء الملتهبة إلى كوكب الجدي، وأعطى مؤذّن السماء إذن الحضور، وشرّع أبواب القرب والأرض بعمق ذرّاتها اتّصلت بالسماء، ونسيم عليلٌ هبّ من ناحية الشمال، والأصحاب يصلّون صلاة الدموع.

يروي «السيد ابن طاووس» أنّه قيلَ لـ«محمّدِ بن بشير الحضرمي» في تلكَ الحال: «قد أُسرَ ابنُك بثغر الرّي»، فقال: «عندَ اللهِ أحتسبه، ونفسي ما كُنتُ أُحبّ أَن يُؤسرَ وأن أبقى بعده!»؛ أي إنّه فرحٌ لكونه أسيرًا، وسيبقى فترة في الأسر عندما

يموت هو، ولن يشهد مقتله. فَسمِعَ الحسين عليه السلام قولَه، فقال: «رَحِمكَ اللهُ، أنت في حلّ من بيعتي، فاعملْ في فكاكِ ابنِك!». فقال: «أكلتني السّباعُ حيًّا إنْ فارقتُكَ! وهل أفارقك وأتركك في غربة ثمّ أسأل عنك راكبي الجميل والله لن أفعل ذلك أبدًا»[1].

وصلت سفينة الأجل إلى منزلها الأخير، وهذه آخر ليلةٍ يكون فيها الإمام عليه السلام في كوكب الأرض. كوكب الأرض هو سفينة الأجل، في وسط بحر السماء المعلّق اللامتناهي. يسافر مع الشمس نحو مستقرٍّ لها ويحمل معه مسافريه بلا إرادتهم.

أيها المسافر! انظر جيدًا أين أنت! فلا تجعلك غفلتك تخال أنّ سفينة الأجل هي المأمن الخالد فتغفل في هذا الوهم عن سفرك السماوي. انظر جيدًا، ففوق رأسك السماء، وتحت قدمك سفينة تُركت في بحر الحيرة بأمان العشق. هذه جذبة العشق التي تجعلها متّصلة بالشمس بعنان التوكل. والشمس تطوف حول شمسٍ أخرى، وهذه الشمس أيضًا تطوف حول شمسٍ أخرى، وكلها تطوف حول شمس شموس العشق، الحسين بن علي عليه السلام، أوليس هو نفسه مسافرًا في سفينة الأجل؟ أيها الأصحاب! هنا مكان حيرة العقل، وإذا بقي

(1) اللهوف على قتلى الطفوف، مصدر سابق، ص 93 – 94.

«العقل» تبقى «الحيرة». فيجب إذًا أن نترك الأمر لـ«الخمر»؛ تلك الخمر التي تخلصك من «نفسك»، ونصل إلى القتل في مسلخه. آه! إنّ الله شاء أن يراك قتيلًا.

هناك أحيانًا من كان قد تحرّر من نفسه ولكنه ما زال في جسده؛ الجسد المتألّم من الدهر أيضًا، يتألّم من الدهر قائلًا:

يــا دهــــرُ أفٍّ لــك مــن خلـيـل
كــم لــك بـــــالإشراق والأصـــيــل
مـــن صــاحــب أو طــالــبٍ قتيل
والـــدهــــر لا يـقــنـع بـالـبــــديـل
وإنّمـــــا الأمــــر إلى الـجـلـيـــل
وكـــلُّ حـــيٍّ ســـــالــك سـبـيــلي[1]

هذا صوت الحسين الـذي يأتي من الخيمة المجاورة، هناك حيث يصقل «جون» سيفه للقتال. الشعر والسيف؟ العشق والقتال؟ نعم، الشعر والسيف، العشق والقتال، هذا الحسين عليه السلام مبدأ سلسلة العشاق الذي حمل لواء الحرب حتى ينشر دمه نحو السماء كمجرّةٍ من نور، فيبيّن طريق

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 404.

القبلة للباحثين عنها. هناك حيث طريق القبلة مرهون أيضًا بالقتل، والعشاق ليس لديهم طريق آخر سوى هذا الطريق.

الشعر هو الترنّم الموزون في حالة السكر ونشوة الطرب. والشاعر الذي لم يتحرّر من نفسه، لن يصبح شعره شعرًا. والشعر الذي لا يتحرر فيه الشاعر عن نفسه هو حديث النفس. أمّا إذا تحرر الشاعر من نفسه يكون الكلام كلام العشق. إذًا، فليس من العجب أن يجتمع الشعر والسيف والعشق والحرب معًا، فلا جرم أنّ عشق الأصحاب هو كربلائي. فهناك أيضًا كلام آخر عن منصور وبايزيد وجنيد[1] وفلان وفلان، قُل إنّ العشاق الحقيقيين يكتبون تذكرة الأولياء بالدم في شوارع خرمشهر وعبادان وسوسنگرد، وفي حقول شقائق النعمان في خوزستان، وعلى الثلوج البيضاء في ارتفاعات كردستان، يكتبونها بالدم.

يفشي سرّ التقرّب الأصحاب في المذبح على الـرؤوس المقطوعة، فبيننا وبين الحسين مسافة الدم هذه. دعني أقول إنّ طلسم الشيطان هو الخوف من الموت، وإنّ هذا الطلسم لا ينكسر إلا في ميدان الحرب. رجال الحق لا يعرفون الخوف إلا الخوف من الله، وهذا الحديث إن لم تتمّ تجربته

(1) أسماء لشهداء إيرانيين.

في الحرب، ألا يصبح إلا لعقًا في اللسان؟ ولكن أيها الدهر! إذا كانت الصورة هكذا فلا يُعطى الصبر إلا في مواجهة الألم وارتضائه أيضًا في الصبر. فهذا رأسنا وسيف جورك، فليأتِ شمر بن ذي الجوشن، وليجلس على صدورنا، ويحزّ رؤوسنا من القفا، ولتحضر زينب عليها السلام إلى محل رؤية الأسرار هذا.

أولئك الذين بقوا أخيرًا هم أصحاب عاشوراء الإمام، وليس لديهم رابط مع الدنيا من دون الله. وإذا كان هناك من صلة فقد انقطعت بعد كلام الإمام، وبعده لم يبقَ أيّ حجاب يحجب بينهم وبين الله. قال الإمام: «اتخِّذوا الليل جملًا وتفرّقوا»؛ ليس لكي يتألّم الأصحاب، بل ليودِعوا قلوبهم الموت، وهكذا لا يبقى بينهم وبين الدنيا أيّ صلة من دون الله، فإذا قُطعت الصلات ستُكشف الحجب.

آهٍ لرفاق سفر معراج الحسين عليه السلام. أيّ ليلةٍ مباركة هذه! إلى هنا، كان جبرائيل عندكم في التزام الركب، بعد، ستصبح لديكم أجنحة سبوحية لا يُسمح بالولوج إليها. أنتم المختارون في أصعب ابتلاءات تاريخ خلقة الإنسان، ولهذا قَبِلكم الحسين عليه السلام في معراج سفره. سيأتي مَن سوف يكشف سر هذه الليلة، مَن يخفق جناحه مع أجنحتكم، وهذه العطيّة لا تُعطى إلا لطيور حرم الأنس. من هي طيور حرم الأنس؟ كيف لا تتشقّق صدوركم؟ وكيف لا تصفون قلوبكم ولا تتألّم من

ذلك؟ إذا لم أعلم أنا ما هو الكلام فأريد منكم أنتم أن تقولوا ما الذي جرى عليكم في تلك الليلة. أيها الغارقون في سبحات الجلال! يا سكارى الجبروت، يا حرّاس مخيّم الأنس، يا أصحاب قبلة كعبة الطواف! يا ... ماذا أقول؟ لم يُخلَق الكلام لبيان هذه الأسرار، إنّ مفتاح هذا السرّ هو السكوت وليس الكلام.

في ساعات الليل الأولى، «نافع بن هلال» الذي كان يقف حارسًا للخيام، رأى الإمام عليه السلام يبتعد عن الخيام في الليل. كان الإمام الحسين عليه السلام قد خرج في جوف الليل يتفقّد عسكره، وما هو حول الخيمة، فتبعه نافع بن هلال على جناح السرعة، فأمسك الإمام عليه السلام يده وقال: «ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل وتنجو بنفسك؟»[1]. إنّ الإمام عليه السلام امتحن نافع مرة أخرى ليوصله إلى حافّة اليقين ويخرج من قلبه الخوف والشك.

مهما كان الألماس أكثر الجواهر شفافية ولكنّه أصعبها أيضًا، البقاء في صف أصحاب عاشوراء أمام العشق لا يمكن أن يكون إلا باليقين المطلق. فيا أيها القلب! أنت أيضًا لا يمكن أن تهرب من هذه السنّة التي لا تتغير منذ الخلقة. لا تتخيّل

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 406.

أنّ الممتحَنين بالبلاء هم فقط العاشورائيون ولا غير؛ فصحراء البلاء تتّسع باتّساع التاريخ.

وقع نافع بن هلال على قدمي الإمام عليه السلام يقبّلهما وهو يقول: «ثكلتني أمي، إن سيفي بألف، وفرسي مثله. فوالله الذي منَّ بك عليَّ لا فارقتك حتى يكلأ عن فريٍ»[1].

دخل الإمام عليه السلام خيمة زينب عليها السلام، ووقف نافع إزاء الخيمة ينتظره، فسمع زينب عليها السلام وهي تقول: «هل استعلمت من أصحابك نياتهم؟ فإنّي أخشى أن يسلموك عند الوثبة». فقال عليه السلام لها: «والله، لقد بلوتهم فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس»[2]. إمام العشق يصف أنصاره بهذا الوصف: «يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمه».

صحراء البلاء هي باتّساع التاريخ، ولا تنتهي بقول «يا ليتني كنت معكم». إذا كنت رجلًا صادقًا في الميدان، فانظر في نفسك جيدًا، هل تأنس بالموت هكذا أو لا؟ فإذا كنت كذلك، فإنّك من أصحاب قبلة كعبة الطواف وإلا... عوض أن تقرأ زيارة عاشوراء بلسانك، اذهب بقلبك في خيل أصحاب

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 406.
(2) المصدر نفسه، ص 406 – 407.

الحسين عليه السلام آخر الزمان إلى زيارة عاشوراء. ضحّاك بن عبد الله المشرقي الذي تعرفه، فرّ عصر عاشوراء من جبهة الحق، بعد أن كان يضرب بسيفه من الصباح حتى المساء مع الحسين عليه السلام. الخوف وليد الشكّ، والشكّ وليد الشرك، وهذه الثلاث الخوف والشرك والشك قطّاع طريق الحق، فإن لم تأنس بالموت، سيجد الخوف طريقه إليك وستترك الإمام في صحراء البلاء.

بقدر ما يكون الليل حالكًا فإنّه يجعل النجوم تتجلّى أكثر. وهذا سر من أسرار محيي الليل. فإذا لم تكن ناشئة الليل كيف يمكن الصبر على آلام النهار العظيمة؟

عليّ الأكبر كشف طريق الفرات مع خمسين من الأصحاب لآخر مرة، وعادوا ومعهم بعض الماء. اغتسل الأصحاب غسل الشهادة وتوضؤوا ووقفوا لصلاة الوداع.

أصبحت تلك الخيمة مجرّةً، فمنذ الآن يطلقون عليها اسم مطاف العشق.

الفصل السابع:
فصل تمييز الخبيث من الطيب
(إتمام الحجة)

تنفّس الفجر الصادق، ونادى المؤذّن السماوي بين الأرض والسماء: «سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح». وقف الإمام عليه السلام لأداء صلاة الفجر، واقتدى به أصحابه، فاتّصل الظاهر والباطن والأول والآخر. بين الظاهر والباطن وادٍ من الحيرة، يحتار فيه العقل. الجسد في الدنيا والروح في الآخرة: هذا يجذبك نحو التراب، وذلك نحو السماء. والعين حاسّة ترى ظاهر الأمور.

في معسكر عمر بن سعد هناك من وقف لأداء الصلاة. يا للأسف! كيف يجب أن تُفهِم هؤلاء أنّ صلاتهم لا نفع فيها، هؤلاء الذين قد تهيّؤوا ليحاربوا باطن القبلة؟ وأسفاه! كيف يمكن أن ننجي هؤلاء من بادية الوهم بين الظاهر والباطن؟

الإمام عليه السلام هو باطن القبلة، ويجب أن تكون الصلاة باتجاه القبلة. هل من عاقل يصلّي عكس القبلة؟

ثم إنّ الصلاة هي الصلاة التي يجتمع فيها الظاهر والباطن. وإلا، فإمام تلك الصلاة التي يصلّيها هؤلاء في معسكر يزيد هو الشيطان. الإسلام ليس لباسًا يمكن أن يتكيّف مع جسم الجاهلية. ولكن هنا الدنيا وصحراء الوهم هي المسافة بين الظاهر والباطن. يخدع الشيطان النسّاك الجاهلين بصلاتهم. وإذا كان هؤلاء قد نزعوا رداء الأطماع الدنيوية عنهم، لمَا أحضروا معهم كل هذه الخيول، الجاهلية متجذّرة في الباطن وإلا كيف استطاع الجاهلون، أصحاب القلوب الميتة، الشجرة الخبيثة، بنو أمية أن ينشروا ظلال حُكمهم الجهنّمي على المجتمع الإسلامي؟

بعد أداء الصلاة، أدار الإمام وجهه نحو أصحابه وقال: «إنّ الله سبحانه وتعالى قد أذن في قتلكم وقتلي في هذا اليوم، فعليكم بالصبر والقتال[1]... فالموت ممرٌّ من العذاب والتعب إلى جنّات الله الواسعة ونعمه الدائمة فمن الذي لا يريد أن ينتقل من السجن الضيّق إلى قصر واسع؟ وإن كان الموت عند الأعداء هو انتقال من قصر واسع إلى سجن ضيّق». يقول

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 414.

الرسول ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر**»، والموت جسر يوصل الناس إمّا إلى جنتهم وإما إلى جهنمهم»[1].

ثمّ إنّ الصبح قد دمدم والليل قد تسربل، وقد انتظم معسكر عمر بن سعد ليحمل على فسطاط الحسين عليه السلام، رفع الحسين عليه السلام كفّه إلى السماء وقال: «اللهم أنت ثقتي في كل كرب وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمن سواك، ففرّجته عني وكشفته، فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حاجة ومنتهى كل رغبة»[2].

كلام الإمام عليه السلام وأصحابه قبل بدء المعركة هو نسيمٌ ربيعي يهبّ على ديار الأموات، فلعلّه يوجد من هم ما زالوا غارقين حتى الآن في نوم شتائي: «أَيُّهَا النَّاسُ! اسْمَعُوا قَوْلِي، وَلاَ تَعْجَلُوا حَتَّى أَعِظَكُمْ بِمَا يَحِقُّ عَلَيَّ لَكُمْ؛ وَحَتَّي أُعْذِرَ إلَيْكُمْ! فَإنْ أَعْطَيْتُمُونِي النِّصْفَ كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ! وَإنْ لَمْ تُعْطُونِي النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 497.
(2) المصدر نفسه، ص 414.

يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[1] ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾»[2].

وعندما وصل كلام الإمام عليه السلام إلى أهل الحرم الذين كانوا يستمعون، خرج منهم عويل ونحيب، ولمّا سمعت النساء هذا منه صِحْنَ وبكين، وارتفعَت أصواتهنّ.

«يا نساء وبنات بني هاشم، اسكتْن فلعمري ليكثر بكاؤكنّ، حتى يجفّ الدمع في العيون ولا يبقى سوى الدم فيها»[3].

«عباد الله اتّقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر، فإنّ الدنيا لو بقيت لأحد أو بقي عليها أحد، كانت الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولى بالرضا، وأرضى بالقضاء، غير أنّ الله تعالى خلق الدنيا للبلاء، وخلق أهلها للفناء، فجديدها بالٍ ونعيمها مضمحلّ، وسرورها مكفهرّ، والمنزل بلغة والدار قلعة، فتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾».[4]

«الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالًا بعد حال، فالمغرور من غرّته، والشقيّ من فتنته، فلا تغرنّكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء من ركنَ إليها،

(1) سورة يونس، الآية 71.
(2) سورة الأعراف، الآية 196.
(3) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 418 – 419.
(4) المصدر نفسه، ص 418.

وتخيّب طمعَ من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته وجنّبكم رحمته. فنعمَ الربّ ربّنا، وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد ﷺ. ثّم إنكم زحفتم إلى ذريّته وعترته، تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبًّا لكم ولما تريدون، **إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم، فبعدًا للقوم الظالمين»**[1].

«أيها الناس انسبوني مَن أنا؟ ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحلُّ لكم قتلي؟ وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيّكم؟ وابن وصيّه؟ وابن عمّه؟ وأول المؤمنين بالله؟ والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيّار عمي؟ أولم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمّدت الكذب منذ علمتُ إنّ الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه، وإن كذّبتموني فإنّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبركم أنّهم

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 416 – 417.

سمعوا هذه المقالة، من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟».

فقال الشمر: «هو يعبد الله على حرفٍ إن كان يدري ما يقول!».

فقال له حبيب بن مظاهر: «والله إني أراك تعبد الله على سبعين حرفًا، وأنا أشهدُ إنّك صادقٌ ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك».

ثم قال الحسين: «فإن كنتم في شكّ من هذا القول، أفتشكّون أني ابن بنت نبيّكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري فيكم، ولا في غيركم، ويْحَكم أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته؟ أو مالٍ لكم استهلكته؟ أو بقصاص جراحةٍ؟».

فأخذوا لا يكلّمونه، فنادى: «يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن أقدم قد أينعت الثمار واخضّر الجناب وإنّما تُقدم على جندٍ لك مجنّدة؟»

فلم يكن لديهم جـوابٌ سوى الإنكار. فقام قيس بن الأشعث يغطّي فعلته أمام عمر بن سعد فصاح: «ما ندري ما تقول ولكن انزل على حكم بني عمّك، فإنّهم لا يُرونَكَ إلا ما تحبّ!».

فقال له الحسينُ عليه السلام: «أنت أخو أخيك، أتريدُ أن يطلبَكَ بنو هاشمٍ بأكثرَ من دمِ مسلمِ بنِ عقيل؟ لا واللهِ، لا أُعطيهِمْ بيدي إعطاءَ الذليلِ، ولا أُقِرُّ إقرارَ العبيد»[1].

لا والله! وهذه الـ«لا والله» هي إعلان حرية حزب الله، ثمّ تلا الإمام عليه السلام ما قاله موسى عليه السلام أمام الفراعنة: «﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾[2]، أعوذُ ﴿...بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾»[3].

الآن، الإمـام واقف في وجه التاريخ، ينظر إلى صفوف معسكر الأعداء وهو يبدو مثل طوفان هائج يتّسع من الليل حتى الأفق. ماذا يجب أن يُقال لعمر بن سعد في حلقة صناديد الكوفة؟ واأسفاه! فالكلام لن يكون إلا جزءًا يسيرًا من الحقيقة، بل وأسوأ من ذلك، قل طائرٌ محلّق عاليًا أسيرُ هذا القفص الضيق وجناحان منكسران.

آهٍ من هذه الأيام كم هي عجيبة! رجل يحمل حمل مظهر الحق العظيم. ولكن، بوجه كوجه الآخرين، وجسد ليس أضخم من جسدهم.

---

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 419 – 421.
(2) سورة الدخان، الآية 20.
(3) سورة غافر، الآية 27.

عجبًا ليوسف هذا الزمان ما أجمله! ولكن ما نفع هذا الجمال حين يراه الجاهلون مرآة أنفسهم وينظرون أيضًا إليه بالطريقة نفسها! واأسفاه ألا يوجد أيّ سبيل ليدركوا حقيقة وجوده؟

شمسٌ تنظر إلى غروبها في سيل الليل المتموّج هذا، وتنتظر حتى تغرب في شفق دمها، ولكن أيّ غروب هذا الذي يتّخذ نور العالم من مصباح وجوده منشأً؟

عجبًا لرجل هو قلب الخليقة قائم على كوكب هو قلب السماء، ويجذب كل عالم التكوين بجاذبية عشقه نحو الكمال! ولكن بوجه كوجه الآخرين وجسد ليس أضخم من جسدهم.

عجبًا! الظاهر شهادة الباطن، ولكن انظر كيف تضيع الحقيقة بينهما. وفي خضمّ هذه الحيرة والضياع رأس يعرفه أصحابه ولا غير.

عجبًا! انظر إلى الشمس تنظر في المـرآة وتقول: «أنا الشمس».

عارٌ عليكم أيها البائسون! هذا الحسين عليه السلام! هذا خامس أهل الكساء، ذلك الكساء كساء الرحمة والعصمة، كساء هو مظهر الحق. وأنت أيها التراب الضائع في رياح الهلاك! أأنت الذي قد وضعت نفسك أمانة؟ هذا الحسين، سرّ فاطمة

المستودَع! يكفي أنّ دمه هو دم الله، وإن سال هذا الدم فعالَم التكوين كلّه سينهض للأخذ بالثأر. هذا الحسين الذي تشرق شمس خلافة الإنسان من أفق دمه.

أيها البائسون! انظروا جيدًا إلى ما تفعلون، ومقابل مَن قد وقفتم! لا تدعوا دم الله يسيل بأيدي اختياركم! لا تغترّوا بخديعة الليل والنهار! هذا الحسين علّة خلق الكون والمكان، حتى لو كان وجهه كوجهكم وجسده ليس أضخم من جسدكم، فلا يغرّنكم رؤية الظاهر! انظروا إلى طلعة الشمس في عمق سماء عينيه، وابحثوا عن كرامة الله في روحه.

هذا الحسين عليه السلام! يضع على رأسه عمامة رسول الله، ويضع إزاره على جسده ورداءه على كتفه، ويحمل سيفه بيده، ولم يمضِ نصف قرنٍ على رحيل رسول الله بعد.

ثمّ أراد الإمام أن يخاطبهم مرة ثانية، فرحمته من رحمة ربّ العالمين، والعياذ بالله أن نفكّر بالإمام بغير هذه الرحمة! ولكنهّم هلهلوا ومنعوه من الكلام.

الدنيا صراط الآخرة، وفيها كلٌّ يربط أواصر محبّته بإمامه. ومثل إمام الكفر شمر بن ذي الجوشن عندما يسقط فإنّه يسحب أولئك وراءه باختيارهم. أيّ رأسٍ هذا الذي شتّت آراء أهل الكفر! ولكن ليس لديهم ملّة واحدة؟ ولكن عندما

يجتمعون معًا ومعهم وقح غبي مثل الشمر، تعالَ وانظر ماذا يفعلون! الشرك ملازمٌ للتفرقة، ولكن مقابل مكر خداع الدنيا هم مثل آكل الجيف، تحلّقوا حول جنازة على جيف بلا عدد من الغضب والشهوة. ولكن إذا ما وصل عبيد الشهوة إلى الإمارة، فإنّهم لا يأمرون أكثر من أصحابهم. ضعف النفس والجهل يوظّف عبيد الشهوة في خدمة أسياد الغضب.

صاح الإمام عليه السلام فقال لهم: «ويلكم! ما عليكم أن لا تنصتوا فتسمعوا قولي! وإنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد. تبًّا لكم أيتها الجماعة وترحًا! أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفًا لنا في أيمانكم، وحششتم علينا نارًا اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألبًا لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلا لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها فسحقًا لكم يا عبيد الأمة! وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الآثم ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، ويحكم! أهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلون أجل والله غدر فيكم قديم،

وشجت عليه أصولكم، تأزرت فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر وأكلة للغاصب!»[1].

وحين سمع هؤلاء هذا الكلام، أخذوا في لوم بعضهم بعضًا، ثمّ ابتلعت دوامة الصمت كل الأصوات دفعة واحدة. مثل هؤلاء كمثل خرفان بلهاء، يوجّهون نظرهم إلى بعضهم بعضًا، وغالبًا ما تكون فريسة الذئب كذلك.

برقٌ من غضب يأتي مثل الصاعقة فتهتزّ الأرض ويسقط المطر، ولكن ما نفع المطر في صحراء القلوب الميتة؟ فقد غضب الإمام عليه السلام، وخطابه كان صاعقةً ألهبت الأرض بسوط النار. أيّ الرؤوس قد تطأطأت وأيّ القلوب ترتجف من الخوف! ولكن هؤلاء هم جرذان يلجؤون عند خوفهم من الرعد إلى جحورهم العميقة المظلمة ويهربون. غضب الإمام عليه السلام هو غضب الله، ولكنّه ليس الغضب الذي ينزل البلاء. هو غضب آباء عطوفين من أبناء وقحين، قد يئسوا من لطائف الحيل.

ما زال الإمام يتجنّب قتالهم. حينئذ تصبح الحرب صراعًا حيث يصل تمييز الحقّ من الباطل إلى خاتمته. ما زال الحرّ وسعد وأبو الحتوف بين هؤلاء القوم. فقد يُشقّق سوط الصاعقة صخور قلوبهم القاسية فتُفجّر نبعًا من الدموع.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 422.

أوليس هنالك من صخور ليست طريقًا للماء الزلال تحت الأرض؟ أوليس هنالك من عيون لا تدمع؟ أوليس هنالك من قلوب لا تصفو بالدموع؟

«... أنتم طغاة هذه الأمة، أنتم أحزاب كشجرة خبيثة ليس لها أصل، أنتم الذين تركتم حبل القرآن المتين ولا تجدون الآن ما تتمسّكون به لينقذكم من الضلالة، أنتم أخلاط صدر الشيطان تنشرون المراض السوداء في الأرض، أنتم مجتمع الذنوب ومحرّفو القرآن، أنتم أطفأتم ضوء السنن، أنتم قتَلة أبناء الأنبياء ومهلكو عترة الأوصياء، أنتم من نَسَب أولاد الزنا، وأنتم من تؤذون المؤمنين، وأنتم صرخة أئمة المستهزئين الذين قطعوا القرآن وعملوا ببعض آياته وتركوا بعضه الآخر، أنتم معتمدو ابن حرب وشيعته، أنتم الذين تتركوننا، فوالله إنّ من صفاتكم الخذلان وقلة الوفاء. ونضجت عروقكم على ذلك، وقد ورثتم ذلك في شجرة وجودكم، وقد تربّت على ذلك قلوبكم وصدوركم. أنتم كشجرة خبيثة تخنق ثمارها صاحب البستان، ولكنّها تكون حلوة في فم غاصبها. فلعنة الله على ناكثي العهود الذين ينكثون عهودهم بعد توكيدها، وأنتم جعلتم الله كفيلًا لأعمالكم، أنتم ناقضو العهود الذين ذكركم القرآن الكريم اعلمو إنّ ابن زياد ابن زنا ووالده ابن زنا، ألا وإنّ

الدّعي ابن الدّعي [يعني ابن زياد] قدْ ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، و**هيهات منّا الذّلة**، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحُجور طابت وحُجور طهرت وأنوف حمية، ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر».

ثمّ رفع يديه نحو السماء وقال: «اللهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسًا مصبرة، كذبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير»[1].

البحر المسجور من غضب الإله المنتقم مستعر. ولم تسل بعد دماء سيد الشهداء عليه السلام في مصرعه. أجنحة الكراهية السوداء مثل ظلّ ضخم قد حجب سماء المدينة ومكة والكوفة والشام عن كرم ورحمة الله. آهٍ! هذا الإله الذي حجب وجه الصبر عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأظهر باطن غضبه. آهٍ من عالم الخلق ينهض كلّه دفعة دفعة للانتقام لدم الحسين الذي أُسيل بغير حقّ! فهو وارث خلافة الإنسان الكامل، بل هو الإنسان الكامل، كعبة طواف تسبيحة عالم الوجود.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 423.

هذا هو الألم الذي يصبح أحيانًا لُقمة مُرّة تُوجّه القلب إلى أماكن مستحيلة: ليت الحق كان قد ظهر بلا حجاب، لكان أيقن هؤلاء الحقراء إلى أين تصل ليلة غفلتهم السوداء! وأيّ جهنم هذه التي تستعرّ في قلوبهم! وأيّ دوامة موحشة تلك التي ساقتهم إلى ورطة العدم والهلكة، أمّا العقل فقد صاح وجلًا: يا أيها المؤمّلون لا تعقدوا القلوب على المستحيل! الحقّ ظهر من دون حجاب. فلماذا تقول مثل هذا الكلام؟ الحجاب هو أنا وأنت، وإلا، سبحان الله! الحقّ في ساحة كبريائه منزّه عن هذا الظن. أنت أيضًا قل ربّ أرني[1]، مثلما قال موسى عليه السلام حتى تتفتح لك أيضًا باب لن تراني[2]، وترى إنّ العلم بأسره هو حجاب. حتى لو كان جمال الحقّ منزّه عن هذه الحجب. باب لن تراني هو بوابة عالم صعق. كن موسى حتى تسمع لن تراني وخرّ موسى صعقًا[3]، تنزل في شأنك. وإلا هنا عالم الآفاق وشمس الخلقة تظهر من هذه الحجب.

العقل يصرخ وجلًا: أيها المؤمّلون! استيقِظوا! الدنيا صراط الآخرة، وإذا كان لديك عين لنظرتَ إلى قيامتك تقوم في هذه الساحة! وإذا كنت هنا مع الحسين عليه السلام هناك أيضًا ستكون

(1) جزء من الآية 143 من سورة الأعراف.
(2) الآية نفسها.
(3) الآية نفسها.

مع الحسين عليه السلام، وإذا كنت هنا مع يزيد فانظر جيّدًا، ذاك يزيد الذي سوف يَؤمُّك إلى جهنم.

العقل يصرخ وجلاً أيها المؤمّلون! أجل يا ليت الحق يظهر في الدنيا من دون حجاب معناه يا ليت الدنيا لم تُخلق!

صار بغض الإمام مستجابًا، وأمّا التحقّق التكويني لذاك عن ذاك، سيبدأ عندما تبدأ دماؤه بالسيلان على أرض كربلاء، والملائكة في الانتظار.

فجأة قال الإمام: «أين عمر بن سعد؟ نادوه ليأتي إليّ»[1].

ما الذي حصل؟ ألم ييأس الإمام عليه السلام بعد من قساة القلوب هؤلاء؟ عن أيّ علامة للبحر يبحث في مستنقع عمر بن سعد؟

عمر بن سعد: ابن سعد بن أبي وقاس فاتح القادسية، وفي مدرسة أب مثل هذا أخذ علمه قبل ذلك فلا يعرف من هو الإمام عليه السلام ومنزلته السماوية. ومن جهة أخرى، هذه الجذبة الشيطانية معجونة بالخوف! في البداية علّق عمر بن سعد قلبه بالمستحيل، لعلّه يستطيع أن يجمع الدنيا والآخرة، وهذا التوهّم الشيطاني توهُّم جميع الذين يريدون الدين،

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 424.

ولكن ليس بذلك الثمن الذي يجعلهم يخرجون قلبهم من الدنيا. أولئك يخادعون الله والمكر يرافقهم ليلًا نهارًا، ولكن ألا يستطيعون حتى خداع أنفسهم؟ إذًا، يجب أن يقطعوا لسان صدق ذلك المذكّر الداخلي حتى لا يغفلوا في تلك العشرة. ولكن من هو ذلك المذكّر الداخلي؟ ألا يمكن أيضًا خداعه؟ العقل يبقى عقلًا ما دام لم يقطع ارتباطه الأزلي. هذا المصباح الذي لا يمكن أن يعلّق في طوفان الغضب وطلب الجاه. المرآة التي أكلها الصدأ هي ليست مرآة. العقل المحجوب في ظلمة المذنبين ليس عقلًا! بل هو وهم. يجعلك كطائر أبله يضع رأسه في ثلوج الغفلة. تصوّر أنّك وضعت نفسك في مكان لا يراك فيه أحد: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾[1].

«ولاية بلاد جرجان والريّ»! يزيّن الشيطان خدع الدنيا حتى يخدع ابن آدم، ولكن هذه الخدعة هي في نفسك. هو الشيطان الذي يزيّن كل شيء في نفسك. سلطته فقط على الغاوين، أولئك الذين تركض أعمالهم أمامهم بصورة خيالية، القصور الخضراء، الثروات، الجنّات المعلّقة، نوم لا يقلقه سوى ناقوس الموت.

(1) سورة الحشر، الآية 19.

خرقت صرخة الحسين كلّ ميادين التاريخ، واجتمع أهل الصدق كلهم، ولكن عمر بن سعد نجا بنفسه.

لقد أدخل عمر بن سعد برأسه في طوق الغفلة، وكان يهرب أيضًا من العقلاء، لا يمكنه العودة إلى نفسه. لا جرم أنّ الإمام أخذ يخطب فيه ويقول: «يا عمر، أتزعم أنّك تقتلني ويوليك الدعيّ بلاد الريّ وجرجان؟ والله لا تتهنّى بذلك عهدًا معهودًا فاصنع ما أنت صانع، فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنّي برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة، ويتخذونه غرضًا بينهم».

ولكن عمر بن سعد ميّت لا يحييه أيّ إكسير. أدار عمر برأسه ونادى أصحابه وقال: «ماذا تنتظرون؟ اهجموا عليه سوية هجمة واحدة»[1].

آهٍ من لقمة الدهر الخانقة! الدهر لا يدور أبدًا حسب إرادة السفلة. مكر الليل والنهار هذا الذي يغرّنا ليلًا نهارًا حتى نتعلّق بدهر الطمع. الأمر في يد ذاك الجليل الذي لا يوجد سوى مشيئته المطلقة وإرادته في الدنيا.

بعد خمس سنوات، استيقظ عمر بن سعد من نوم ثقيل، ففتح عينيه على فراشه ورأى «كيسان التمّار» (رئيس شرطة

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 424 – 425.

المختار الثقفي) فوق رأسه وفي يده خنجر مسموم؛ هذا رأس قاتل الحسين بن عليّ عليه السلام، رفعوه على رأس رمح طويل ليرشقه أطفال الكوفة بالحجارة. وبعد هذا، هل بقي أحدٌ يخادع الله ويحاول أن يجمع الدنيا والآخرة معًا؟

نعم، هذه هي الفكرة التي يخدع فيها الشيطان أصحاب الدين. تمرّ الأيام والليالي، وهو يخال أنّهم قد نسوه. ولكن هل هناك مكان تحت السماء محجوب عن عين الموت؟ هذا رأس قاتل الحسين عليه السلام، هذا رأس قاتل الحسين عليه السلام.

ثمّ إنّ الحسين بن علي عليه السلام قال: «قوموا أيها الكرام... قوموا إلى موتٍ لا مفرّ منه فهذه السهام رُسُل القوم إليكم. أما والله ليس بينكم وبين جنّة الرضوان وجهنّم إلا الموت الذي يوصلكم إلى جنّتكم ويوصلهم إلى جهنّمهم. إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: يا بُنيّ! إنك ستُساق إلى العراق، وتنزل في أرض يُقال لها «عموراء»، وإنّك تستشهد بها ويستشهد معك جماعة. ثم تلا هذه الآية المباركة: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.[1] فأبشِروا بالحرب التي ستكون بردًا وسلامًا عليكم كما نار إبراهيم عليه السلام. فوالله إن قتلونا سنلقى أنبياءنا»[2].

(1) سورة الأنبياء، الآية 69.

(2) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 429 – 430.

منذ ذلك اليوم أصبحت النيران بردًا وسلامًا على أصحاب الحسين عليه السلام، والسهام رُسُل تبشّر بالجنة. السهام تنهمر حتى تأخذ كلّ شيء بيننا وبين الحياة الدنيا، وتُحكِم أواصر توكُّلنا، وتوصِلنا إلى اليقين. واليقين أيضًا الذي صيّر النار على إبراهيم عليه السلام بستانًا. وإذا تيقنتَ أنت أيضًا، إنّ نارًا من دون إذن الخالق هي نار لا تحرق، ستكون عليك أيضًا بردًا وسلامًا.

الفصل الثامن:
غربال الدهر

قالوا إنّه عندما أراد الحر بن يزيد الرياحي أن يبتعد عن جيوش عمر بن سعد ويلتحق بجيش الحق، قال له «مهاجر بن أوس»: «ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟». فلم يجبه، فأخذه مثل الأفكل وهي الرعدة، فقال له المهاجر: «إنّ أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عَدَوْتُكَ، فما هذا الذي أرى منك؟»[1].

الجسم صورة تُظهر الروح، ولكن أيّ قرابة بين هذا الظاهر وذلك الباطن؟ أما أولئك الذين يجعلون الروح مركبًا في خدمة أهواء الجسد، كيف لهم أن يعلموا لماذا يئنّ أهل الباطن من سجن الجسد؟ الجسم مرآة الروح، ولكنّه ليس إلا قطرة من

(1) موسوعة الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 438.

ذلك المحيط اللامتناهي، فالذين ضحّوا بذلك الصنم الظاهر كانوا يعرفون الحسين عليه السلام.

هل رأيتَ من يحتضر عند حضور الموت، كيف يرتعش جسده؟ فتلك الجاذبية العظيمة من داخل ذرّات الجسد تأخذ الروح نحو السماء اللامتناهية الخالدة حيث لا يمكن رؤية ذلك. ولكنّ نصيب الجسد من ذلك كلّه ليس إلا رعشة، رعشة الموت. موت ظهر قبل أن يحلّ الأجل. فقد ألقت أجنحة الموت بظلالها على فراش ذلة الحر. موتوا قبل أن تموتوا، هنا أصبح الحر حرًّا آخر. أصبح هو من يقبض روحه بنفسه، وليس ملك الموت من يقبضها. وأمام العين سرادقات عشقٍ مصفّى، ممتدّةً على صفحات السماوات والأرض، نور على نور حتى غاية الغايات حيث معراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الخلف قبر ضيق هو أضيق من جلد الإنسان، وكأنّ ذرّات الجسد تُضغَط في قبر أضيق منها!.

ارتجف الحرّ قائلًا: «إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئًا، ولو قُطّعت وأُحرقت ثم ضرب فرسه فلحق الحسين»[1]، واقتاد جسده، وانطلق نحو مخيّم الحسين بن علي.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 438.

كبّر الحر بن يزيد الرياحي تكبيرة إحرام الدم. فانكشف آخر الحجب، فتحرّر من عبودية الغير. دخل الحرّ في صلاة العشق، وهذه الصلاة دائمة؛ فالذي يدخلها لا يفرغ منها أبدًا ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾[1]، فقبض روحه بنفسه. أعطى الحرّ إذن قبْض روحه وأشرف الموت: الموت في سبيل الله، وهل يليق بالأحرار الكرام موتٌ غير هذا؟ فالأحرار يعوذون بالله من الموت على الفراش، قدم الصدق لا تتزلزل على الصراط أبدًا.

كان الحرّ صادقًا ومنذ البداية لم يذهب إلا في طريق الحق، فكم أخذ مكر الليل والنهار الأحرار نحو قصر الإمارة في الكوفة. فغربال البلاء لن يترك أحدًا منهم، وسوف يميّز طوعًا أو كرهًا أهل الصدق عن أهل الكذب. لا يستطيع مكّار مثل الضحّاك بن عبد الله أن ينجو من بلاء الدهر، فيجب القول علنًا ليس هناك من مكان للاختباء في محضر الإله الحقّ العظيم.

الضحّاك بن عبد الله هو نفسه قال: «لمّا رأيت أصحاب الحسين عليه السلام قد أصيبوا، وقد خلص إليه وإلى أهل بيته، ولم يبقَ معه غير «سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي» و«بشير بن عمرو الحضرمي»، قلت له: يا بن رسول الله! قد

(1) سورة المعارج، الآية 23.

علمت ما كان بيني وبينك، قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلًا، فإذا لم أرَ مقاتلًا فأنا في حلّ من الانصراف، فقلت لي: نعم. قال: فقال: صدقت، وكيف لك بالنجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حل، لمّا أذن لي الحسين، استخرجت الفرس من الفسطاط، ثم استويت على متنها، ثم ضربتها حتى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي...»[1].

جسد الضحّاك بن عبد الله كان طوال كلّ عاشوراء من الصباح حتى الغروب مع أصحاب عاشوراء أمام العشق. ولكنّ روحه لم تدخل ولو بمقدار نفس واحد في عالم ملكوت الأحرار؛ لأنّه وضع شرطًا بينه وبين الحسين عليه السلام. «العبادة المشروطة» كدودة قزّ تختنق في بيتها، ولن ينبت لها جناحان قط. هذا شرط بينه وبين الحسين عليه السلام، وإن كان لا يعلم ما في قلبه إلا الله، لكن انتبِه فإنّ لوح التقدير ينقش بقلم التخيير للإنسان!

لا تشرط عبوديتك بالأجر كما المتسوّلين، فربّك يعلم جيّدًا أسلوب تربية العابدين. إذا لم يكن الأمر كذلك، فالشرط تعلّق حيث الحجاب يأخذ طريقه، ويمنعك من الانضمام إلى جمْع الأحرار.

(1) موسوعة الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 452 – 453.

هذا الشرط هو قلادة الشيطان التي وضعها حول عنقك، وبها تُحرم من صحراء كربلاء وركْب الحسين عليه السلام.

الضحّاك بن عبد الله قاتَل طيلة اليوم، لكنّه كان هاربًا من الشهادة طيلة اليوم، فالدهر جمع كل لوازمه حتى يستطيع الهرب من المعركة، معركة أحاط بها العدو بإحكام كالحابِس على المحبس. كلا! ليس للصدفة مدخل على الخلقة، وإتمام العمل، بلا استثناء، هو انعكاس لوجه الباطن على مرآة الدهر.

الفصل التاسع:
كوكب الألم

قامت المعركة ظهرًا، فنزلت ملائكة السماء لتشهد ما يصنعه ابن آدم في ساحة الفتوّة والوفاء. هل من موقع آخر غير ساحة المعركة لاختبار مدى الفتوّة والوفاء؛ حيث يمرّ السبيل هناك كالصراط من بواطن نار حامية؟ المؤمن من يبقى في ذروة البلاء على دينه، وإلا فما أكثر الذين يتقمّصون الإيمان في الرخاء والسرّاء، وفي السكينة والسلام، حيث يصبح إيمانهم هو إقامة الصلاة كحالة الغربان والجوع والعطش تارة لأيام معدودة، وبضع طواف حول بيت من حجر.

في البداية، كانت المعركة وجهًا لوجه، فأوّل من سقط شهيدًا كان مسلم بن عوسجة، الصحابي الكوفيّ المشتعل رأسه شيبًا.

وقد ورد في زيارة الناحية المقدسة: «وكنت أوّل من شرى نفسه وأول شهيد من شهداء الله قضى نحبه، ففزت وربّ

الكعبة، شكر الله لك استقدامك ومواساتك إمامك، إذ مشى إليك وأنت صريع: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾»[1].

فقال حبيب بن مظاهر الأسدي الذي كان حينها واقفًا إلى جانب الإمام عليه السلام عند مصرع مسلم: «كم هو صعب عليّ أن أراك طريح الأرض مخضّبًا بدمائك، ولكنّ البشارة بالجنة ستجعل الأمر سهلًا عليّ. ولو لم أكن أعرف أنّني سألتحق بك قريبًا، لوددت أن تجعلني لك وصيًا...»، فردّ حينها مسلم قائلًا: «مع كلّ ما قلت لي، لديّ وصية لك»، وأشار بكلتا يديه إلى الحسين عليه السلام[2] ، وتقدّمت حينها ملائكة السماء بالتحية والسلام لصبره ووفائه قائلة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾[3].

ثاني الشهداء كان «عبد الله بن عمير الكلبي»، ذلك الشاب صاحب القامة الطويلة، والوجه الأسمر، والصدر الرحب الذي كان قد جاء مع أمه وزوجته من بئر الجعد من همدان إلى كربلاء. زوجته أيضًا كانت كرجل الميدان، وهي المرأة الوحيدة في صحراء كربلاء التي التحقت بركب الأصحاب العاشورائيين لإمام العشق.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 23.

(2) موسوعة الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 441 – 442.

(3) سورة الرعد، الآية 24.

وقال «مزاحم بن حريث» في خضمّ تلك المعركة كلامًا وقحًا، فهجم عليه نافع، فكان مزاحم يسعى للهروب عندما وصل نافع بن هلال إليه وقتله. فصاح «عمرو بن الحجاج» الذي كان أميرًا للجيش: « أيها الحمقى، ألم تدركوا بعد من تقاتلون، أنتم الآن تقاتلون أشجع شجعان الكوفة، تقاتلون أبطالًا قد اشتروا الموت بأرواحهم فلا يخشون شيئًا! لا يخرجنَّ إليهم أحدكم ويقاتلهم قتال رجل لرجل. فعددهم قليل، فإن توحّدتم وأمطرتموهم بالحجارة ستقضون عليهم».

راقت هذه الفكرة لعمر بن سعد، فلم يُسمح لأحد بعدها بالقتال رجلًا لرجل. ثمّ حاصر الجنود ممّن كانوا تحت إمرة شمر بن ذي الجوشن «نافع بن هلال»، فتواثبوا عليه، وأطافوا به يضاربونه بالحجارة، ومع كل هذا لم يسقط نافعًا حتى كسروا عضديه، عندها أسروه حتى أتوا به عمر بن سعد، فخال عمر بن سعد ومن معه أنّهم يستطيعون أن يذلّوه وقالوا له كلامًا يلومونه فيه على ما فعل. فقال نافع: «والله لقد قتلت من جندكم اثني عشر سوى من جرحت وما ألوم نفسي على الجهد ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني...»، ثمّ قتله شمر بن ذي الجوشن.

عندها أتى الأمر بهجوم جماعي، وحمل جيش عمر بن سعد كلّه على جيش العشق. فشمر بن ذي الجوشن على

الميمنة، وعمرو بن الحجاج على الميسرة من جهة الفرات، وعزرة بن القيس مع الخيّالة، ثمّ اشتدّت المعركة ولم يشاهد أهل الحرم سوى غبار كان قد ارتفع في الفضاء، وفي وسطه حركة عظيمة ولا شيء يُرى.

ما الذي يُقال هنا؟ المعركة في كربلاء متواصلة، وهناك على كل أطراف الأرض في بقاع بعيدة أناسٌ لا يربطهم أيّ رابط بكربلاء والمعركة. هناك على شاطئ الفرات، في قرية عقر، في مكان بعيد في الكوفة، في مكة، في المدينة، في الشام، في اليمن، في زنجبار، والروم، وإيران والصين. فطوفان نوح غطّى الأرض كلها. ولكنّ هذا الطوفان قد أخذ فقط ركاب سفينة العشق، فماذا يجب أن أقول لنزلاء البرّ المطمئنين تاركي البحر وموجه العاتي وإعصاره الهائل. فهم قد ارتاحوا على شواطئ الراحة والفراغ والأمان. فهل هناك من داعٍ للوم؟

بل أكثر من ذلك، انظر من أعلى المجرّة في السماء! شمسٌ من بين شموس السماء اللامتناهية، منظومة عجيبة، ومن بينها نجمة هي الأغرب، يوجد على أرضها حيوانات غريبة الشكل، كل وحدة من هذه الحيوانات لها سماؤها اللامتناهية في داخلها، لكنّها لا تعلم بأمر غيرها، قد وضعت رأسها في كهف وحدتها، منشغلة بهياكل موهومة وتخيّلات كاذبة،

وهذا الزمن المستغرب في أرض كربلاء، هل هناك من داعٍ للوم؟

نعم، الإنسان حامل أمانة الخلق، وعوالمه الظاهرية في لوح الوجود هي صورة لعالمه الداخلي. طوفان كربلاء هو طوفان البلاء الذي اجتاح الإنسانية، فشواطئ الراحة تلك ليست إلا سراب الغفلة، فالإنسان ليس وليد سفينة الصدفة المحطّمة الملقاة في وسط المحيط، الإنسان قلب عالم الوجود وحامل عرش الرحمن، وهذا الكوكب هو ساحة التكوين، هنا ساحة اختيار الإنسان، فالسماء ساحة الجبروت وفي هذا الخضم يُقدَّر عالم التكوين. آهٍ من حِمل الأمانة كم هو ثقيل!

العالم كلّه في طواف العشق، ومحور هذا الطواف هو الحسين عليه السلام. هنا في كربلاء، في مصدر الجاذبية، قد انتظم العالم فيها على محور هو العشق. فالشيطان في حربه الأخيرة مع جيوش العشق، اليوم في كربلاء يهزم سيف الشيطان بالدماء، بدم العاشق، بدم الشهيد.

عزرة بن القيس الذي رأى كيف ينهزم فرسانه من كل حدب وصوب في مواجهة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، لم يرَ وسيلة إلا أن يرسل «عبد الرحمن بن حصين» إلى عمر بن سعد ليقول له: «ألا ترى ما يلقى فرساني منذ بداية اليوم على

أيدي هذه العدّة القليلة؟ أمدِدني بمجموعة من المشاة من رماة السهام»، فكان له ما أراد. أرسل عمر بن سعد «الحصين بن تميم» مع فرسانه وخمسمئة من الرماة لمساندة عزرة بن القيس. فانهمرت السهام من كل الجهات على أصحاب إمام العشق، وما لبثت الدماء تسيل منهم واحدًا تلو الآخر، ولم يتأخر الأمر حتى غرقت جميع خيلهم بالدماء. فالذين نجوا من السهام حملوا راجلين على جيش الأعداء. ينقلون عن «أيوب بن مشرح» إنّه كان يقول باستمرار: «قتلت فرس الحرّ بن يزيد الرياحي، قذفت سهمًا نحو مركبه فاستقرّ في قلب الفرس. فما لبث أن صاح الفرس واضطرب وكبا ولكنّ الحر تنحّى عنه وحمل بسيفه فقط»[1].

كان عمر بن سعد صاحب حيلة في فكرته هذه. فأراد محاصرة أصحاب الإمام، ولكنّ الخيم حالت بينه وبين ذلك. فأمر بإشعال الخيم، فكان أهل حرم آل الله مجتمعين في فسطاط الإمام الحسين عليه السلام. اشتعلت الخيم، فحمل شمر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين عليه السلام برمحه ونـادى: «عليّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله»، قال: فصاحت النساء وخرجْن من الفسطاط، قال: وصاح به

(1) منتهى الآمال، مصدر سابق، ص 422.

الحسين عليه السلام: «يا بن ذي الجوشن أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي! حرقك الله بالنار»[1].

يروي «حميد بن مسلم»: «قلت لشمر بن ذي الجوشن: سبحان الله: لأنّ هذا لا يصلح لك، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين تعذّب بعذاب الله، وتقتل الولدان والنساء، والله إنّ في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك». فقال: «من أنت؟!»، قلت: «لا أخبرك من أنا»، وخشيت والله أن لو عرفني أن يضرّني عند السلطان! فجاءه رجل كان أطوع له مني شبث بن ربعي، فقال: ما رأيت مقالًا أسوأ من قولك، ولا موقفًا أقبح من موقفك! أمرعبًا للنساء صرت!»

وحمل عليه زهير بن القين في رجال من أصحابه عشرة، فشدّ على شمر بن ذي الجوشن وأصحابه، فكشفهم عن الخيم، حتى ارتفعوا عنها فصرعوا «أبا عزة الضبابي» الذي كان من أصحاب الشمر، فقتلوه. بعد قتله، ازداد عدد أصحاب الشمر، وفي النهاية استشهد الجميع ما عدا زهير بن القين.[2]

الجسد في الدنيا والروح في الآخرة، وأصحاب الحسين عليه السلام عقدوا أرواحهم بعهدهم الأزلي، وطاروا بجناح الشهادة إلى

(1) موسوعة الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 443.
(2) منتهى الآمال، مصدر سابق، ص 427 – 428.

حضرة القدس، ولكنّ أجسادهم المدماة هنا وهناك شقائق النعمان نمت على الأرض مفجعة. الجسد في الدنيا والروح في الآخرة، وفي خضم كل ذلك، يحيّر الحكم على ذلك. لقد انتصف النهار، ولم يبقَ شيءٌ لينتهي العالم.

نظر الإمام نظرة إلى الظاهر ونظرة إلى الباطن وقال: «اشتدّ غضبُ الله على اليهود إذ جعلوا له ولدًا، واشتدّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر، واشتدّ غضبه على قوم اتّفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم»، وما زال يضرب الحسين عليه السلام بيده على لحيته الكريمة فقال: «أما والله لا أجيبهم إلى شيء ممّا يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي». وأكمل بصوت عال: «أما من مُغيث يُغيثنا لوجه الله تعالى؟ أما من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»، وصوت البكاء صدح من خيم آل الله[1].

خجل الدهر ولو لم يكن صبْر الخيمة قد لامس الآفاق، لانشقّت السماء ولغطّت الشمس وجهها من الخجل، ولجفّ البحر من حرقة قلب الأرض، وحلّت السنوات حزنًا.

(1) موسوعة الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 432.

هؤلاء التعساء لم يخجلوا، أما الماء والتراب والنار والرياح، ستأخذ كلام الإمام عليه السلام أمانة وتحفظه في لوح باطنها، وبعد ذلك، كلما انهمر الماء من نبع وصار التراب سجدة للصلاة وأحرقت النار قلبًا وصارت الرياح آهًا تخرج من صدر تكرّر هذا الكلام! اسأل التراب الذي خُلقت منه طينتك والماء الذي اختلط بذلك التراب، واسأل النار التي أضرمت فيها واسأل نفحة روح سرت فيها لتدرك كم أنهم حملة أمانة، صادقون هم! التاريخ الأمين هو صرخة الحسين عليه السلام «هل من ناصر ينصرني» والفطرة المختزنة فيه، وبعد ذلك أيّ قلب لا يخفق عند ذكره؟ دعك من الأموات، فإني أتكلّم عن حياة العشق.

وصلت الشمس إلى وسط السماء، واتصلت الظلال بصاحبها. كنت آمل أن تقوم القيامة، ولكن الشمس وقعت في قوس النزول، وبدأ سفر الزوال. نظر «أبو ثمامة» إلى ظلّه الذي كان قد جمع، ونظر إلى السماء فعلم أنّ وقت صلاة الظهر قد حان. لعلّه كان قد سمع الترنّم الملكوتي لأذان مؤذن كربلاء «الحجاج بن مسروق» يأتي من حضرة القدس. كان الحجاج بن مسروق قد أذّن في كل طريق تماشيًا مع قافلة العشق. أما الآن فحضوره دائمٌ في ملكوت العشق، وصوت آذانه الخالد كان صادحًا في روح هذا العالم. لكن في عالم الجسد؛ جسده الذي يبدو مقطوع الرأس فوق أرض الطف، هنا يؤذّن

بلال والحجاج من أجل الصلاة ولكن هناك إن لم يؤذّن بلال والحجاج فلن يحين وقت الصلاة، الجسد في الدنيا والروح في الآخرة وفي خضم كل هذا من الحيرة الحكم على الأمور.

ذكّـر أبو ثمامة الصائدي بحلول وقت الصلاة. تأمّل الإمام عليه السلام في السماء وقال: «ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها. سلوهم أن يكفوا عنّا حتى نصلّي».

ثمّ إنّ جيش العدو كان قد أصبح قريبًا جدًا منهم لدرجة أنّه كان يسمع كلامهم. فصاح الحصين بن تميم: «إنّها لا تُقبل منك ياحسين»، فوقع هذا الكلام على حبيب وقعًا شديدًا فقال: «زعمت لا تُقبل الصلاة من آل رسول الله وتُقبل منك يا فاسق؟!»[1].

الصلاة روح معراج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المعراج من دون أهل الكساء. وهل يعقل ألّا تُقبل الصلاة من الذي يزيل حجابًا حتى التكبيرة السابعة، حتى لا يبقى بينه وبين الخالق أيّ حجاب، وتُقبل منك صلاتك التي هي شبه صلاة؟ انظر إلى الزبد كيف يفخر على سطح المحيط!

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 444.

حمل الحصين بن تميم بشدّة على حبيب بن مظاهر، وذلك الصحابي الكريم شيخ العشق استأسد أيضًا، فحمل بسيفه وضربه ضربة أصابت حصانه، فسقط الحصين بن تميم أرضًا، فأخرجه أصحابه من وسط المعركة.

كان حبيب يقاتل ببسالة، فيرمي هؤلاء أرضًا ويقتلهم. تحلّقوا حوله فضربه رجلٌ من بني تميم ضربة على رأسه وآخر رماه بسهم. نزل «بُديل بن صريم» عن فرسه، وفصل رأسه عن جسده فقال له الحصين بن تميم: «أعطِنيه أعلّقه في عنق فرسي كي يرى الناس ويعلموا أني شاركت في قتله! ثمّ خذه أنت بعد فامضِ به إلى عبيد الله بن زياد، فلا حاجة لي فيما تُعطاه على قتلك إياه». فحمل رأس حبيب وربطه بعنق الفرس وجال به وسط المعسكر، ثمّ عاد إلى بديل بن صريم وردّ إليه الرأس. ثمّ إنّ زهير بن القين والحرّ بن يزيد الرياحي حملا معًا على معسكر الأعداء حتى يجد الإمام عليه السلام وما تبقّى من الأصحاب فرصة للصلاة. فإذا ما وقع أحد منهم في لجة حرب شديدة، جاء الآخر وأخرجه منها، وأطاف مشاة العدو بالحُرّ من كل جانب، وشارك في قتله «أيوب بن مشرح الخيواني» مع رجل آخر من فرسان الكوفة. ثمّ إنّهم أحضروا جسده عند الإمام عليه السلام، فقام الإمام يمسح بيديه التراب عن

رأسه ووجهه ويقول: «أنت الحرّ كما سمّتك أُمّك، حرٌّ في الدنيا وسعيد في الآخرة»[1].

اصطفّ الأصحاب العاشورائيون بإمام العشق للصلاة الأخيرة، ووصل سفر المعراج إلى النهاية. فأوّل صلاة صلّاها أبو البشر كانت عند الزوال، كما أنّ آخر صلاة لوارث آدم هي عند الزوال. ومن تلك الصلاة إلى هذه الصلاة قد مرّت آلاف الأعوام، وفي هذه الآلاف من السنين كم هي الأمور التي مرّت على هذا الإنسان.

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 440.

الفصل العاشر:
مكان مشاهدة الأسرار

لم يبقَ للحسين عليه السلام شيءٌ ليضحّي به سوى الروح التي كانت هي المسافة بينه وبين أداء الأمانة الأزلية. فهنا سدرة المنتهى. كلا! بل إنّ الحسين عليه السلام منذ بدأ مسيره من مكة نحو كربلاء، كان قد قطع سدرة المنتهى وأصبحت خلفه. ونعلم أنّ حدود جبرائيل هي فقط مرافقة عروج الإنسان حتى سدرة المنتهى. هو هناك عندما أراد الخروج من مكة قال: «من كان فينا باذلًا مهجته وموطّنًا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنّني راحل مصبحًا إن شاء الله تعالى»[1].

سدرة المنتهى هي حدود مملكة ملائكة العقل، العقل مقيّد. أما حدود مملكة أهل الكساء هي عالم الأمانة والاختيار. هناك ساحة «إني أعلم من الله ما لا تعلمون»، هناك ساحة

(1) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام، مصدر سابق، ص 328.

العلم اللَّدني، مخزن أسرار خرائن غيب السماوات والأرض. هناك سبحات الفناء في الله والبقاء في الله. ورجل هذا الميدان هو صاحب الحاكم الذي ترفّع عن سلطانه وقدّم طفل إرادته قربانًا في حضرة الإرادة الإلهية، ولأنّه فعل ذلك، أدرك أنّه لا يوجد غيره في عالم الإرادة والسلطة.

لكن كم هي صعبة أن نمضي في تلك الميادين! يقول أولئك الذين وصلوا إلى مقصدهم: ما يفصلنا عنكم هي فقط هذه «الدماء». لقد أتيت بواسطة العقل إلى سدرة المنتهى، ولكن منذ الآن فقط جاذبية الجنون هي التي ستأخذك. إذًا، لم يعد ممكنًا عبور هذه المرحلة بواسطة الإرادة. تحتاج إلى جناحين. جناحان يعطونهما للعباس عليه السلام الذي ضحّى بكفّيه في سبيل الله.

إنّه الحسين الذي طوى ساحات ميادين خلافة تكوين الإنسان إلى تلك المرحلة، فلم يفصله عن مقصده إلا الروح. أولئك الذين ينظرون بعين الظاهر، قد رأوه عند نعش علي الأكبر قائلًا: «على الدنيا بعدك العفا»[1]، وعلى جسد القاسم: «عزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك فلا ينفعك»[2]، والآن عند جسد أبي الفضل العباس عليه السلام يقول:

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 463.
(2) المصدر نفسه، ص 465.

«الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي»[1]، لكنّ أولئك لا يرون حجب النور تتمزّق وتتقطع سلاسل الروح عن ما سوى الله! ولا تنطلق إلى ما سوى الله، فهنا حتى الكلام يتواضع أمامهم كالملائكة.

أيضًا هناك تتجلى مروءة ووفاء الإنسان بأكمل تجلياتها، وتلك القامة الرجولية للعباس بن علي عليه السلام بيدين مقطوعتين على شاطئ الفرات، إشارة إلى أنّ الروح عبرت من هذا المكان، والعجيب في ذلك كيف أنّ الباطن يتجلّى في هذا الظاهر. بعدها أنشدت أم البنين في رثاء العباس عليه السلام:

يا من رأى العباس كرّ على جماهير النقد
ووراه من أبناء حيدر كل ليث ذي لبد

أنبئت أنّ ابني أصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمال برأسه ضرب العمد

لو كان سيفك في يديك لما دنا منك أحد[2]

قد قُطعت كفا العباس بن علي عليه السلام، فاستطاع ذلك اللعين أن يضرب رأسه بالعمود، ولكن ما كانت لتنمو أجنحة السماء لو لم تُقطع تلك الأيدي الظاهرية. وإذا كانت سماء

(1) موسوعة كلمات الإمام الحسين، مصدر سابق، ص 472.
(2) منتهى الآمال، مصدر سابق، ص 455.

الدنيا هي الجنة، إذًا أين سماء الجنة الذي يكون طائرها العباس بن علي عليه السلام؟

أتت ملائكة العقل إلى مكان مشاهدة الأسرار، فخرّت ساجدة منبهرة من تجليات عالم الإنسان اللّدنّي، فالسماوات والأرض أصبحت مسخّرة للإنسان الكامل، وأصبحت سلسلة الزمان في عهدته، ولكنّ الإنسان إن لم يصبح كاملًا لن يدرك أنّ الزمن الذي يدور بطريقه هو أفضل. عين العقل ترى الأخطاء إذ تسأل: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1]. أمّا عين القلب فخطّاءة، ليس أنّ الخطأ يحصل وهي لا ترى، كلا! فعين القلب ترى أنّه ليس هنالك من خطأ، وكل ما يكون بلا حجاب يتجلّى فيه الحق. هل تساءلت يومًا على أيّ شيء سيشهد عالم الشهادة حتى أطلقوا عليه هذا الاسم؟

(1) سورة البقرة، الآية 30.

المراجع

- القرآن الكريم.
- اللهوف على قتلى الطفوف، السيد بن طاووس، السيد أحمد الزنجاني، انتشارات جهان.
- بعد خمسين عامًا، مبحث جديد في الثورة الحسينية، السيد جعفر شهيدي، دار نشر فرهنك اسلامي، طهران.
- تفسير الميزان، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، دار انتشارات اسلامي، قم.
- سفينة البحار، الشيخ عباس القمّي، ج8، دار الأسوة، طهران، 1994.
- كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي، ج16، الرسالة، بيروت، 1985.

- مقتل الحسين أبو مخنف، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي، حجة الله الجودكي، المؤسسة الثقافية للنشر تبيان، طهران 1998.
- منتهى الآمال، الشيخ عباس القمي، حسيني للمطبوعات، طهران.
- موسوعة كلمات الإمـام الحسين، مركز باقر العلوم للدراسات، قم، الطبعة الأولى، 1994.
- نهج البلاغة، الإمام علي، السيد جعفر شهيدي، انقلاب اسلامي للنشر والتعليم، طهران، الطبعة الخامسة، 1994.

العقل يقول لي أن أبقى، والعشق يدعوني للرحيل؛ وكلاهما، العشق والعقل، خلقهما الله ليصبح لوجود الإنسان معنى في الحيرة بين العقل والعشق.

دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

ISBN: 978-614-464-042-5
9 786144 640425